تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السادس

المرجع الديني
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره)

من آية (١٤٩) من سورة النساء
إلى (٨٣) من سورة المائدة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين.

لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٩) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً (١٥٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (١٥٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٥٣) يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً (١٥٤) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (١٥٥)

[١٤٩] وحيث تقدم الكلام حول النفاق وهو شيء ربما اشتبه فيه الناس، ولذا نراهم يرمي بعضهم بعضاً بالنفاق، بيّن سبحانه أنه لا يجوز أن يجهر الإنسان بالقول السيئ بالنسبة إلى أحد إلا إذا كان الإنسان الجاهر مظلوماً فإنه يحق له أن يجهر بظلامته فلا يحق لأحد أن يُبدي عورة غيره حتى فيما إذا علم، فكيف بما لو ظن أو توهم؟ وفي آية أخرى: (اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)[1] {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول} بأن يقول القول السيئ بالنسبة إلى غيره جهراً أمام الناس، ومعنى «لا يحب» أنه يكره ذلك {إلا من ظلم} فإنه يحق له أن يذكر ظلامته أمام الناس {وكان الله سميعاً} يسمع ما يجهر به الإنسان من القول السيئ في غيره {عليماً} بصدق الصادق وكذب الكاذب فيُجازي كلاً حسب جزائه.

[١٥٠] وإذ ذكر تعالى جواز الجهر بالسوء لمن ظلم، بيّن أن إبداء الخير وإخفاء السوء أحسن، فإن ذلك من صفات الله سبحانه العفُوّ القدير، الذي يعفو مع قدرته {إن تبدوا} أي تظهروا {خيراً} أي عملاً حسناً جميلاً لمن أحسن {أو تخفوه} أي تتركوا إظهار الخير، أو المعنى: تعزموا عليه أي تنووه. ولعل الثاني أقرب {أو تعفوا عن سوء} فلا تنتقموا ممن أساء إليكم مع قدرتكم على الانتقام، ففي المقام لاتجهروا بالقول السيئ بالنسبة إلى من ظلمكم {فإن الله كان عفواً} كثير العفو عن خلقه ممن أساء وظلم {قديراً} على الانتقام منهم، فما أجدر أن يتصف الخلق بصفة الخالق.

[١٥١] ولما ذكر سبحانه في الآيات السابقة حال المنافقين، أتم الكلام في الآيات التالية حول حال الكافرين والمؤمنين، فالناس ينقسمون أمام الدعوة الجديدة إلى مؤمن وكافر ومنافق بين أولئك {إن

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

الذين يكفرون بالله ورسله} وإن كان كفراً برسول واحد، والكفر إما بالإنكار أو نحو ذلك {ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله} لعلّهم طائفة أخرى حيث أنهم يؤمنون بالله ويكفرون بالرسل، فبهذه الصفة أنهم يفرقون بين الله بالإيمان وبين الرسل بالكفر {ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض} فإن هناك المنكر المطلق والذي لا ينكر الله ولكن ينكر الأنبياء جملةً، والذي يُبعّض في الأنبياء {ويريدون أن يتخذوا بين ذلك} الحق الواقع {سبيلاً} طريقاً لا الإنكار المطلق ولا الإذعان المطلق، وإنما يفعلون ذلك لأغراض نفسية وتقاليد بالية.

[١٥٢] {أولئك هم الكافرون حقاً} أي حقيقةً، فلا يخرج إيمانهم ببعض عن كونهم كافرين، كما قد ينطبق على البعض الذين لا يعرفون معيار الكفر والإيمان، فإن الكفر هو إنكار أحد الأصول والإيمان هو الإقرار بها أجمع {وأعتدنا للكافرين} أي هيّئنا لهم {عذاباً مهيناً} يُهينهم ويُذلهم.

[١٥٣] {والذين آمنوا بالله ورسله} جميعاً {ولم يفرقوا بين أحد منهم} لفظ «أحد» إذا دخل عليه النفي أو كان في معناه أفاد العموم، ولذا صحّ إدخال «بين» عليه وليس كذلك إذا كان للإثبات {أولئك سوف يؤتيهم} الله {أجورهم} في الآخرة {وكان الله غفوراً} يغفر ما صدر منهم من ذنب {رحيماً} يرحم بلطفه ورحمته.

[١٥٤] وإذ تقدم الكلام عن الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ومن أظهر مصاديق أولئك أهل الكتاب الذين آمنوا بالأنبياء السالفة ولم يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله) بحجج واهية، انتقل السياق إلى هؤلاء مبيّناً أنهم كاذبون في زعمهم الإيمان بموسى (عليه السلام) بأسئلة وأعمال بشعة {يسألك} يا رسول الله {أهل الكتاب} والمراد بهم هنا اليهود {أن تنزل عليهم كتاباً من السماء} كما نزل على موسى التوراة، مكتوباً جملةً، لا أن تأتي الآيات على نحو الوحي.

وفي بعض التفاسير: أن كعب الأشرف وجماعة من اليهود قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة جملة[٢] {فقد سألوا موسى أكبر من ذلك} فهل آمنوا بموسى (عليه السلام) لما آتاهم الكتاب من السماء؟ كلا بل سألوه شيئاً أكبر من ذلك {فقالوا} له (عليه السلام): {أرنا الله جهرةً} حتى نشاهده بأعيننا {فأخذتهم الصاعقة بـ} سبب {ظلمهم} وتجرّؤهم على ساحة قدس الله وجلاله، فقد جاءت صاعقة وأماتتهم جميعاً. كما تقدم في سورة البقرة[٣]. {ثم اتخذوا العجل} إلهاً عبدوه من دون الله سبحانه {من بعد ما جاءتهم البينات} أي الأدلة الواضحة على الربوبية والنبوة، من نجاتهم من بني إسرائيل، وتفريق البحر لهم، وما رأوا من معجزات العصا وغير ذلك {فعفونا عن ذلك} بما تقدم في سورة البقرة من أمرهم بقتل بعضهم بعضاً، ولكن لم ينفعهم ذلك

---

(٢) مجمع البيان: ج٣، ص٢٢٨.

(٣) سورة البقرة: ٥٦.

أيضاً بل بقوا معاندين قساة جفاة {وآتينا موسى} أي أعطيناه {سلطاناً مبيناً} أي حجة واضحة تبين صدقه ونبوته، ومع ذلك لم يؤمنوا.

[١٥٥] {ورفعنا فوقهم الطور} أي جبل الطور حيث اقتلع جزء منه ورُفع فوق رؤوس بني إسرائيل تخويفاً لهم حتى يأخذوا الأحكام ويقبلوا التعاليم {ب} سبب {ميثاقهم} أي عهدهم، ولعل المراد: حين إرادة أخذ الميثاق منهم {وقلنا لهم ادخلوا الباب} أي باب القرية {سجداً} أي في حال السجود، اسجدوا وادخلوا الباب {وقلنا لهم لا تعدوا} أي تعتدوا {في السبت} باصطياد السمك، فقد كان ذلك محرماً عليهم {وأخذنا منهم} أي من أهل الكتاب المتقدم ذكرهم {ميثاقاً غليظاً} أي عهداً أكيداً بأن يسمعوا الأوامر وينزجروا عن النواهي. وقد تقدم بعض الكلام حول الأمور المذكورة في سورة البقرة.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٦) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (١٥٧) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٨) بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٩) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٦٠) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً (١٦١) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦٢) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٣)

[١٥٦] ثم ذكر سبحانه أن اليهود بأعمالهم القبيحة استحقوا عقاب الدنيا وعقاب الآخرة أما عقاب الدنيا فتحريم الطيبات عليهم وأما عقاب الآخرة فالنار المهيأة لهم، فقوله سبحانه: «فبما نقضهم.. إلى آخر الآيات» متعلق بقوله: «حرمنا عليهم طيبات أحلت..» {فبما نقضهم ميثاقهم} أي بسبب نقض اليهود معاهدتهم مع الله بأن يعملوا بكل ما في التوراة من الأحكام فإنهم لم يعملوا بغالب أحكامها أصولاً وفروعاً {وكفرهم بآيات الله} التي أقامها على صدق أنبيائه ككفرهم بأدلة نبوة عيسى (عليه السلام) {وقتلهم الأنبياء بغير حق} فإنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً يقتلون وفريقاً يكذبون وكلمة «بغير حق» للتوضيح لاللتأكيد إذ قتل الأنبياء لا يكون بالحق أبداً {و} بسبب {قولهم قلوبنا غلف} جمع «أغلف» أي في غلاف من دعوتك يا محمد، فلا نفهم ما تقول، كالشيء المغلف الذي لا يصل إليه شيء من الخارج، فقد كانوا يقولون ذلك للرسول (صلى الله عليه وآله) حتى لا يدعوهم إلى الهدى. ثم جاء سبحانه بجملة معترضة في الكلام رداً لقولهم «قلوبنا غلف» بقوله: {بل طبع الله عليها بكفرهم} فإن الإنسان إذا رأى الحق فأنكره وتكرر منه العصيان يكون قلبه في معزل عن الحق، وصار الإنكار كالملكة له فإنه يعرف الحق كلما رآه لكنه ينكره، لا لأنه لا يرى الحق. لأن قلبه في غلاف. وعلى هذا يكون معنى بكفرهم: لسبب كفرهم {فلا يؤمنون إلا قليلاً} إذ قلّما يرتدع من صار الإنكار ملكة له بسبب غيه وضلاله، ثم إن نسبة الطبع إلى الله تعالى إما حقيقة لأنه خلق القلب كذلك، بحيث يصير الأمر المتكرر ملكة له، وإما مجازاً يراد بذلك: تركهم وشأنهم.

[١٥٧] {وبـ} سبب {كفرهم} بعيسى المسيح (عليه السلام) أو المراد: الكفر المطلق، كرّر تأكيداً أو هو إرهاص لقوله «وقولهم على مريم» يريد بذلك أنهم صاروا كفاراً بسبب هذه التهمة لعظمتها {وقولهم على مريم} الصديقة المعصومة أم المسيح (عليه السلام) {بهتاناً عظيماً} حيث نسبوها إلى الزنا لما ولد عيسى (عليه السلام) منها من غير أب.

عن «الكلبي» أن عيسى (عليه السلام) مر برهط فقال بعضهم لبعض: جاءكم الساحر ابن الساحرة. فقذفوه بأمه فسمع ذلك عيسى فقال: اللهم أنت ربي ولم آتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبّني وسبّ والدتي فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير(٤).

[١٥٨] {و} بسبب {قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم} وهذا القول موجب لسخط الله تعالى لأنه (عليه السلام) رسوله، وقوله: {رسول الله} إما قول اليهود على وجه الاستهزاء، وإما قول الله تعالى، فليس «مقول قولهم» وإما أنه اعتراف منهم بأنه الرسول، كما اعترف أهل الكوفة بأن الحسين إمام وقتلوه لهوى النفس. ثم ردهم الله سبحانه بقوله: {وما قتلوه وما صلبوه} لأنهم كانوا يقولون: قتلناه صلباً {ولكن شبه لهم} بأن ألقى الله شبه عيسى على بعض اليهود، فقتلوا ذلك الشبيه لعيسى (عليه السلام) لا أنهم قتلوا نفس المسيح {وإن الذين اختلفوا فيه} أي في المسيح (عليه السلام) هل أنه قتل أم لم يقتل؟ {لفي شك منه} فإنهم صاروا فريقين: قسم يقولون قتلناه، وقسم يقولون لم نقتله وإنما قتلنا شبيها له، ولم يكن قولهم عن يقين وإنما عن شك وتردد {ما لهم به} أي لهؤلاء القائلين بقتله {من علم إلا اتباع الظن} هذا الاستثناء منقطع، فإنه كثيراً ما يُستثنى من أصل الكلام لا من قيوده، فكأنه قال هنا: «ما لهم من حالة نفسية حول هذا الموضوع إلا اتباع الظن» فمن يقول قتلناه يظن ذلك لا أنه يستيقن. ولا يخفى أن الشك بمعناه اللغوي يلائم الظن، وليس الشك بمعنى تساوي الطرفين حتى ينافي الظن الذي بمعنى ترجيح أحد الطرفين. {وما قتلوه يقيناً} أي: باليقين والقطع لم يقتلوا عيسى.

[١٥٩] {بل رفعه الله إليه} أي إلى محل تشريفه وهو السماء، فإنه قد ثبت في علم الكلام أنه سبحانه لا محلّ له. ثم إن رفعه له إلى السماء يمكن أن يكون في بعض الكواكب فإنها ـ كما في الحديث ـ «مدن كمدنكم»(٥) {وكان الله عزيزاً} ذا عزة وسلطة يتمكن مما أراد وأمر {حكيماً} يضع الأشياء مواضعها وتقديراته عن حكمة وبصيرة.

[١٦٠] {وإن من أهل الكتاب} أي ما مِن أحد من أهل الكتاب من اليهود {إلا ليؤمنن به} أي بالمسيح (عليه السلام) {قبل موته} أي قبل موت المسيح (عليه السلام) ينزل من السماء

---

(٤) بحار الأنوار: ج١٤، ص٣٤٠.

(٥) بحار الأنوار: ج٢، ص٢١٩.

ويصلي خلف الإمام المهدي (عليه السلام) فيؤمن به كل يهودي[٦]. ومن المعلوم أن المراد بكل يهودي مَن كان في ذلك الوقت، لا كل يهود العالم الذين ماتوا من قبل. وهذه العبارة عرفية فيقال: يعرف أهل البلد الفلاني جميعُهم حتى إذا خرجت منها، يريد بذلك: من كان منهم فيها، لا كل من مات أو خرج قبل رحلته {ويوم القيامة يكون} المسيح (عليه السلام) {عليهم} أي على اليهود {شهيداً} بأنه قد بلغ رسالات ربه، وأنهم آذوه وطردوه ولم يقبلوا منه.

وهناك احتمال أن يعود الضمير «به» إلى محمد (صلى الله عليه وآله) الذي هو محل البعث مع الكفار، وضمير «موته» إلى الكتابي، أي كل كتابي يؤمن بالرسول قبل أن يموت حين الاحتضار حيث ينكشف له الواقع.

[١٦١] ولما ذكر سبحانه اليهود قال: {فبظلم من الذين هادوا} أي بسبب ظلم اليهود لأنبيائهم ولأنفسهم ولغيرهم. بما تقدم من أقسام الظلم {حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم} فقد أُحلّ قسمٌ من الطيبات لهم، لكنهم لما ظلموا حرمّ عليهم تلك الطيبات جزاءً على أعمالهم. والمحرمات هي ما بُيّن في قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ..)[٧]، {وبصدهم} أي بمنعهم {عن سبيل الله كثيراً} عطف على قوله: «فبظلم» فإنهم كانوا يصدون عن سبيل الله ويمنعون الناس عن التدين بدين المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله) كما كانوا يحرفون التوراة حسب رغباتهم وأهوائهم.

[١٦٢] {و} بـ {أخذهم الربا} وهو أخذ الزيادة من المقترِض، فقد كان حراماً حتى في شريعتهم ولكنهم لم يكونوا يأبهون بالشريعة {وقد نهوا عنه} أي والحال أنهم كانوا قد نهوا عن أخذ الربا {و} بـ {أكلهم أموال الناس بالباطل} فقد كانوا يأخذون الرشوة في الحكم ويسيطرون على أموال الآخرين بالمكر أو القوة {وأعتدنا للكافرين منهم} الذين لم يؤمنوا بالرسول (صلى الله عليه وآله) {عذاباً أليماً} يؤلم أجسامهم وأرواحهم.

[١٦٣] ولما ذكر سبحانه «للكافرين منهم» فُهم أن بعضهم ليس كذلك، وقد بيّن ذلك سبحانه بقوله: {لكن الراسخون في العلم منهم} كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين رسخوا في العلم وثبتوا فيه وعرفوا العلم حق المعرفة {والمؤمنون} يعني أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) ، والمحتمل أن المراد بهم: المؤمنون بموسى حقيقةً، مقابل سائر اليهود الذين كان إيمانهم مزيفاً كاذباً {يؤمنون بما أنزل إليك} يا رسول الله من القرآن الحكيم {وما أنزل من قبلك} من كتب موسى وعيسى (عليهما السلام)

---

(٦) العمدة: ص٤٣٨.

(٧) سورة الأنعام: ١٤٧.

بخلاف اليهود الذين لم يؤمنوا إطلاقاً، وكان إيمانهم بالتوراة كذباً، كما قال سبحانه: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)[٨] .

وهنا قد يتساءل البعض: أن اليهود إن كان في طبيعتهم الانحراف كما هو المشهور بين الناس والظاهر من قوله تعالى: (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)[٩] وقوله: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ)[١٠] ومن أعمالهم مع أنبيائهم وبالأخص موسى (عليه السلام)، فكيف يمكن لهم التخلّي عن هذه الطبيعة؟ وكيف يقبلون بالإسلام إذا أسلموا؟ وكيف يُمكن التفريق بين من كفر منهم وبين من قال سبحانه عنه «لكن الراسخون..»؟

والجواب: أن اليهود لهم جهتا انحراف: الأولى طبيعتهم المتحجرة، والثانية دينهم الباطل الذي يأمرهم بكل منكر، وتقاليدهم البالية السخيفة. ومن المعلوم أن اليهودي إذا أسلم رُوضت طبيعته وصُقلت بالإسلام، كالجبان الذي يشجع نفسه حتى تصبح له ملكة الشجاعة، والفاسق الذي يسلك الصلاح حتى تحصل له ملكة العدالة. وكذلك تذهب تقاليده ودينه المحرّف فلا يكون حافز له على الإجرام والرذيلة، بالإضافة إلى أن الانحراف ليس من طبيعة الكل مطلقاً بل الأغلب، كما لا يخفى.

{والمقيمين الصلاة} عطف على «الراسخون» أي الذين يقيمون الصلاة من اليهود فإن لكل دين صلاة، وإنما عطف بالنصب والقاعدة الرفع أي «المقيمون» لأنه نصب على المدح، وهذا تفنّن في الكلام لإزالة الضجر النفسي الذي يحصل من سبك واحد. وقد كانت إقامة الصلاة الدائمة من أقوى العوامل للإيمان بالرسول (صلى الله عليه وآله) لأنها مذكرة مستمرة توجب ملكة طيبة {والمؤتون الزكاة} فقد كان كل دين يأمر بالزكاة بمعناها الأعم {والمؤمنون بالله واليوم الآخر} إيماناً حقيقياً لا صورياً. كما كان عند غالب اليهود. {أولئك} المتصفون بهذه الصفات {سنؤتيهم} في الآخرة {أجراً عظيماً} في جنات النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

ويمكن أن يكون الكلام من قوله: «والمقيمين» استئنافاً إلى أن الراسخين في العلم من اليهود والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة. من المسلمين. أولئك نعطيهم الأجر العظيم، فلا يكون «المقيمين.. إلخ» من صفات اليهود الراسخين في العلم، وربما يؤيد هذا الوجه نصب «المقيمين» كأنه أراد بيان الانقطاع عما قبله وأنه في حكم الضمير في «سنؤتيهم» أي سنؤتي المقيمين.. سنؤتيهم أجراً عظيماً، كباب الاشتغال.

---

(٨) سورة الجمعة: ٦.

(٩) سورة البقرة: ٧٥.

(١٠) سورة المائدة: ٨٣.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (١٦٤) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٥) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٦) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيداً (١٦٨) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٩) إِلاَ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (١٧٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧١)

[١٦٤] ثم ذكر سبحانه أن مجادلات اليهود باطلة وأن الرسول (صلى الله عليه وآله) أوحي إليه كما أوحي من قبله إلى سائر الأنبياء، وقولهم بإنزال الكتاب عليهم بحيث قد كثر في الأنبياء السابقين مَن أوحي إليه، قال تعالى: {إنا أوحينا إليك} يا رسول الله «الوحي» هو الإلقاء في القلب بواسطة ملك، أو ابتداءً بدون ملك في اليقظة أو المنام {كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} أي من بعد نوح (عليه السلام). ثم ذكر بعض الأنبياء بالاسم تعظيماً وإن كانوا داخلين في عموم النبيين {وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} وقدّم إسماعيل لأنه أرفع شأناً في الإيمان، وإن كان الثاني أكبر سناً. كما هو المشهور. {ويعقوب} وهو حفيد إبراهيم ابن إسحاق جدّ اليهود، كما أن إسماعيل جد الرسول (صلى الله عليه وآله) {والأسباط} أي: الأنبياء المبعوثون من أولاد يعقوب، ويُسمّون الأسباط لأنهم أحفاد يعقوب كيوسف وغيره (عليهم السلام) {وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان} ولم يذكر موسى (عليه السلام) لأنه نزل عليه الكتاب من السماء الذي كان محل احتجاج اليهود. كما تقدم. {وآتينا داود زبوراً} جمع «زُبُر» أي شيئاً فشيئاً، ولم ننزل على هؤلاء الأنبياء كتاباً كاملاً بل إما وحياً وإما جزءاً، كداود (عليه السلام).

[١٦٥] {و} أرسلنا {رسلاً} بالوحي إليهم {قد قصصناهم عليك} كيونس (عليه السلام) {من قبل} في سائر القرآن {ورسلاً لم نقصصهم عليك} فقد كان عدد الأنبياء. على المشهور. مائة وأربعة وعشرين ألفاً[١١] {وكلم الله موسى تكليماً} فلم يكن كل ما أتاه بشكل الكتاب، فموسى (عليه

(١١) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٨.

السلام) الذي هو محل احتجاج اليهود كان الله قد كلمه، والكلام قسم من الوحي، ولا يخفى أن كلام الله سبحانه إنما هو بخلق الصوت في الفضاء لأنه سبحانه منزّه عن الجسمية ولوازمها.

[١٦٦] {رسلاً مبشرين} لمن آمن وأطاع بالثواب {ومنذرين} لمن كفر وعصى بالعقاب {لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد} إرسال {الرسل} بل لله الحجة البالغة، والمراد بالناس الغالب لا الكل إذ بعضهم لم تدركه الدعوة كما هو معلوم بالضرورة، وصرحت بذلك بعض الأحاديث {وكان الله عزيزاً} مقتدراً للعقاب والثواب {حكيماً} يفعل الأفعال عن مصلحة وحكمة.

[١٦٧] إن اليهود إن لم يشهدوا لك يا رسول الله بالنبوة بحجة مختلقة {لكن الله يشهد بما أنزل إليك} وشهادة الله هي إجراء المعجزة على يد الرسول ولا يكون ذلك إلا لله وحده، والفرق بين السحر والمعجزة أن السحر يوصل بالأسباب إلى مسبباتها ولو كانت الأسباب ختوماً وأوراداً، والمعجزة خرق لنواميس الطبيعة بمجرد إرادة الرسول ومن آتاه الله ذلك. ولا يفرق بين الأمرين إلا أهل المعرفة، فالرسول يتمكن من إحياء الميت بينما لا يتمكن الساحر من ذلك وهكذا. {أنزله بعلمه} أي بعلمه أنك أهل للنبوة، أو أنزله مقترناً بالعلم الذي من لدنه، أو أن الإنزال كان معلوماً لله تعالى لا كما يأمر الآمر وهو غافل أو جاهل أو ناسٍ أو ساهٍ، والأول أقرب {والملائكة يشهدون} بما أنزل إليك، ولعل ذكر الملائكة تشريعي، أي بشهادة واقعية وإن لم يكن لها أثر، أو أن الأثر نصرة الملائكة كما رأوا في يوم بدر وكما ظهر بعض الآثار لنزول الملائكة {وكفى بالله شهيداً} يشهد بأنك رسوله.

[١٦٨] ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين بالرسول بقوله تعالى: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله} أي منعوا الناس عن الإيمان ومنعوا الإسلام عن التقدم {قد ضلوا} طريق الحق {ضلالاً بعيداً} متباعداً عن الطريق السوي.

[١٦٩] {إن الذين كفروا} بالله ورسله وما جاءوا به {وظلموا} أنفسهم بالعصيان والناس بالحرمان عن طريق الهداية {لم يكن الله ليغفر لهم} إذا ماتوا على الكفر، كما يظهر القيد من سائر الآيات {ولا ليهديهم طريقاً} والمراد طريق الجنة.

[١٧٠] {إلا طريق جهنم} جزاءً لما فعلوا من الكفر والظلم {خالدين فيها أبداً} لا زوال للعذاب ولا انقطاع. وقد يتساءل البعض: ولِمَ العذاب الدائم مقابل العمل الذي كانت له مدة محدودة له؟ والجواب: أن العذاب للشر الكامن الذي كان له مظهر، وذلك باقٍ أبداً، ولذا قال سبحانه: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)[١٢]، {وكان ذلك على الله يسيراً} لقدرته الكاملة وسلطانه المطلق.

[١٧١] ثم خاطب سبحانه جميع الناس بوجوب الإيمان والتنكّب عن طريق الكفر بقوله: {يا أيها الناس قد جاءكم الرسول} محمد {بالحق} أي مجيئه بالحق، أو بالدين الذي ارتضاه الله لعباده {من

---

(١٢) سورة الأنعام: ٢٩.

ربكم} أي من طرفه وجانبه، فربكم هو الباعث له. وفيه تأكيد لوجوب القبول {فآمنوا} بما أتى به من الأصول، وأتوا {خيراً لكم} أي خيراً تعود فائدته إلى أنفسكم {وإن تكفروا} فلا تظنوا أن ذلك يضر الله تعالى {فإن لله ما في السماوات والأرض} فلا ينقصه كفركم شيئاً {وكان الله عليماً} بمصالحكم ومفاسدكم، فالرسول آتٍ بما هو الصلاح لكم {حكيماً} في أمره ونهيه وتدبيره وتقديره.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧٢) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٣) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (١٧٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٥) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (١٧٦)

[١٧٢] ثم توجه السياق إلى أهل الكتاب الذين تقدم الكلام عنهم، لكن هنا يراد بهم النصارى فقط، فقال سبحانه: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم} الغلو: هو مجاوزة الحد والارتفاع، ومنه «غلا في دينه» أي تجاوز الحد إلى الارتفاع، فقد كان المسيحيون يقولون بتعدد الآلهة: الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأول هو الله، وبالثاني المسيح، وبالثالث جبرائيل (عليه السلام) {ولا تقولوا على الله} أي لا تفتروا على الله بأن تقولوا: إن الله أمرنا بعبادة آلهة ثلاثة، أو المعنى: لاتقولوا بالنسبة إلى الله ما ينافي عظمته من قولكم إن له شريكاً {إلا الحق} وهو أنه لاشريك له ولم يأمر إلا بذلك {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} قيل: إنما سمي بالمسيح لأنه كان يمسح الأرض ويسيح في البلاد، و«عيسى ابن مريم» بيان لقوله «المسيح» يعني أنه ابن مريم، لا أنه ابن الله، و«رسول الله» خبر لقوله «المسيح» {وكلمته} أي كلمة الله، وهذا تشبيه، فكما أن المتكلم إذا قال القول، حدث منه في الخارج شبه إلقاء، كذلك الله سبحانه يُلقي الأشياء إلى الخارج فهي كلماته، ولذا يقال للمخلوقات «كلمات الله» و«إنما» هنا للحصر الإضافي مقابل النبوة والألوهية.

{ألقاها إلى مريم} أي أوجدها في رحمها الطاهرة بدون زواج واقتراب من رجل {وروح منه} سبحانه و«الروح» هي القوة ـ الطاقة ـ التي تتحرك وتُحرك، والمعنى: أن عيسى روح من قبل الله سبحانه، ولذا يقال له: «روح الله»، ومن المعلوم أن الإضافة تشريفية نحو: بيت الله.

{فآمنوا بالله ورسله} إيماناً صحيحاً بالإذعان لوحدانيته، وأنه لاشريك له ولا ولد، وأن المسيح رسوله الكريم {ولا تقولوا} أيها النصارى أن الإله {ثلاثة} أب وابن وروح القدس {انتهوا} عن هذا الكلام البشع، وأتوا {خيراً لكم} في دنياكم وآخرتكم من التوحيد والتنزيه {إنما الله إله واحد} لا شريك

له فليس المسيح شريكاً له في الألوهية، فإن من كان له شريك لا يصلح أن يكون إلهاً إذ الشركة تلازم التركيب، والتركيب يلازم الحدوث، فإن كل مركَّب لا بد له من مركِّب وأجزاء سابقة ـ ولو رتبة ـ وما سبقه غيره ليس بإله {سبحانه} أي أُسبّحه سبحانه، بمعنى: أُنزهه تنزيهاً {أن يكن له ولد} كما قال المسيحيون من أن المسيح ابن الله، فإنه لو أريد بالولد المعنى المتعارف مما يستلزم الولادة، فإن ذلك من صفات الممكن لا من صفات الإله، إذ لا يعتري الإله التغيير، وإلا كان حادثاً، ولو أريد المعنى التشريعي كما يقول الشخص الكبير لبعض الناس ـ إذا أراد تشريفهم ـ : «فلان ولدي» فإن ذلك لا يجوز بالنسبة إلى الله سبحانه إذ شؤونه كلها توقيفية، فقد أذن أن يقال: «فلان خليله» ولم يأذن أن يقال: «ابنه أو ولده». والمراد بالآية هو المعنى الأول.

{له} أي الله تعالى {ما في السماوات وما في الأرض} ومن يكون كل شيء ملكه، لا يمكن أن يكون شيء ولداً له، إذ الولد من جنس الوالد، وهو جسم فعلٌ لله فليس له نظير ولا شبيه {وكفى بالله وكيلاً} للرسول (صلى الله عليه وآله) في نفاذ أمره، وهو وعيد للقائلين بالتثليث.

[١٧٣] ثم ذكر سبحانه أن المسيح (عليه السلام) يعترف بأنه عبد الله فلِمَ يقول هؤلاء بأنه ابن الله أو شريك الله؟ {لن يستنكف المسيح} أي لن يأنف عيسى (عليه السلام) {أن يكون عبداً لله} بل اعترف هو (عليه السلام) حين ولادته بذلك (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)[١٣]، {ولا الملائكة المقربون} الذين قربهم سبحانه من ساحة لطفه. ولعل هذا إشارة إلى رد من زعم أنهم أولاد الله كما حكى سبحانه بقوله: (وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً)[١٤]، {ومن يستنكف} يأنف ويمتنع {عن عبادته ويستكبر} فيرى نفسه أكبر وأعظم من أن يعترف لله بالعبودية {فسيحشرهم إليه جميعاً} الحشر هو الجمع، أي يجمعهم يوم القيامة جميعاً ليُجازيهم باستكبارهم. و«إليه» ليس للمكان لأنه سبحانه منزّه عنه، بل المراد: المحل المعدّ لقضائه وجزائه.

[١٧٤] {فأما الذين آمنوا} إيماناً صحيحاً {وعملوا الصالحات} أي الأعمال الصالحات {فيوفيهم} أي يعطيهم عطاءً كاملاً تاماً {أجورهم} التي وعد الله لهم {ويزيدهم من فضله} أي يزيدهم على ما كان قد وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الحسنة تفضّلاً منه وكرماً {وأما الذين استنكفوا واستكبروا} عن عبادته وطاعته {فيعذبهم عذاباً أليماً} أي مؤلماً {ولا يجدون لهم من دون الله ولياً} يتولى أمورهم ويُنجيهم من عذاب الله {ولا نصيراً} ينصرهم.

[١٧٥] {يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم} أي حجة ودليل يدلّكم على الحق {وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً} أي نوراً واضحاً وهو القرآن، فكما أن النور يهدي الإنسان إلى طريقه في

---

(١٣) سورة مريم: ٣١.

(١٤) سورة الزخرف: ٢٠.

ظلمات الليل ونحوه، كذلك القرآن يهدي الإنسان إلى طريقه في ظلمات الحياة، وبهذا المعنى يعني (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)[١٥].

[١٧٦] {فأما الذين آمنوا بالله} إيماناً صحيحاً كما أمر العقل والشرع {واعتصموا به} أي تمسكوا بالله في أمورهم، أو أن الضمير «به» يرجع إلى النور {فسيدخلهم} يوم القيامة {في رحمة منه} سبحانه يرحمهم بها ويتفضل عليهم بالجنة {وفضل} أي زيادة على ما استحقوا {ويهديهم إليه} أي يرشدهم إلى نفسه، كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)[١٦]، {صراطاً مستقيماً} أي جادة مستقيمة، فهم يصلون إلى الحقائق والسعادة في صراط مستقيم، حيث أنهم اتبعوا الدعوة ولبّوا الداعي. ومفهوم الآية: أن الذين كفروا بالله واعتصموا بسواه فسيدخلهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ويضلهم ضلالاً بعيداً. وما في بعض الأخبار من تفسير «النور» بأمير المؤمنين والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) فإن ذلك من باب أظهر المصاديق، كما قد تكرّر بيانه.

---

(١٥) سورة النور: ٣٦.

(١٦) سورة محمد: ١٨.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٧)

سورة المائدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٣)

[١٧٧] في حديث أن جابر بن عبد الله الأنصاري كان مريضاً فعاده رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسأل الرسول (صلى الله عليه وآله) قائلاً: إن لي كلالة . أي أخوات . فكيف أصنع في مالي بالنسبة إلى ميراثهن؟ فنزلت الآية[١٧] {يستفتونك} أي يطلبون منك الفتوى يا رسول الله، ولهذه الآية ربط بما سبق في حكم الكلالة (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً)[١٨]، {قل الله يفتيكم} أي يبيّن لكم الحكم {في} مسألة {الكلالة إن امرؤا هلك} أي مات، وليس معنى «الهلاك» ما يتبادر غالباً من كونه هلاكاً سيئاً بل مطلقاً، كما قال في قصة يوسف (عليه السلام) (حَتَّى إِذَا هَلَكَ)[١٩]، {ليس له ولد} ولا أبوان حتى لا يكون هناك من في الطبقة الأولى كما دل عليه النص والإجماع {وله أخت} واحدة {فلها نصف ما ترك} فرضاً، والنصف الآخر ردّاً {وهو يرثها} أي الأخ يرث الأخت، لو كانت الأخت ميتة والأخ حياً يرث جميع أموالها فرضاً {إن لم يكن لها ولد} ولا والدان، وهذا مع قطع النظر عن الزوجين، وإلا فهما يرثان نصيبهما الأعلى والباقي للكلالة.

---

(١٧) راجع كتاب فقه القرآن: ج٢، ٣٣٨.

(١٨) سورة النساء: ١٣.

(١٩) سورة غافر: ٣٥.

{فإن كانتا اثنتين} أي كان للرجل الميت أختان {فلهما الثلثان مما ترك} فرضاً والثلث الآخر قرابةً {وإن كانوا} أي الكلالة التي ترث الميت {إخوة} أي جماعة أكثر من الاثنين {رجالاً ونساءً} بعضهم أخوان وبعضهم أخوات {فللذكر مثل حظ الأنثين} لكل أنثى سهم واحد ولكل ذكر سهمان اثنان، وهذا كله في الأخوة من الجانبين أو من جانب الأب، أما الأخوة من جانب الأم فقد سبق حكمهم في أول السورة {يبين الله لكم} الأحكام {أن تضلوا} أي لئلاّ تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. بمعنى: تخطئوا الحكم في مسألة الكلالة {والله بكل شيء عليم} فيعلم الصالح والفاسد ولذا يكون أمره ونهيه وتقديره عن حكمة وصلاح.

قال في «المجمع»: وقد تضمنت الآية التي أنزلها الله في أول هذه السورة بيان ميراث الولد والوالد، والآية التي بعدها بيان ميراث الأزواج والزوجات والأخوة والأخوات من قبل الأم، وتضمنت هذه الآية التي ختم بها السورة بيان ميراث الأخوة والأخوات من الأب والأم، والأخوة والأخوات من قبل الأب عند عدم الأخوة والأخوات من الأب والأم. وتضمن قوله سبحانه: (وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ)[٢٠]، أن تداني القربى سبب في استحقاق الميراث فمن كان أقرب رحماً وأدنى قرابةً كان أولى بالميراث من الأبعد، والله العالم[٢١].

سورة المائدة

مدنية . آياتها ١٢١

سميت السورة بالمائدة لاشتمالها على كلمة «المائدة»، وحيث ختمت السورة المتقدمة ببيان الحكم بين الميت والحي، تبتدئ هذه السورة ببيان الحكم بين الأحياء، فقال سبحانه:

[١] {بسم الله الرحمن الرحيم} وقد كان لتكرار البسملة أول كل سورة تعليماً للناس أنهم إذا أرادوا أن يبتدئوا بعمل أن يقولوا هذه الجملة المباركة.

[٢] {يا أيها الذين آمنوا} سبق أن الأحكام عامة، وإنما يُخاطب المؤمنون بها لكونهم المستفيدين منها {أوفوا بالعقود} «الجمع المحلّى بأل» يفيد العموم، أي كل العقود و«عقود» جمع عقد، وهو كل التزام وميثاق بين جانبين، فتشمل عقود الناس بعضهم مع بعض والمعاهدات الدولية والمواثيق التي بين الله وبين خلقه، وحيث كانت المواثيق بين الله والخلق أولى العهود بالوفاء، ابتدأ بها بقوله سبحانه: {أحلت لكم بهيمة الأنعام} فإن الحلال والحرام وسائر الأحكام عقود بين الله والخلق، أن

---

(٢٠) سورة الأنفال: ٧٦.

(٢١) مجمع البيان: ج٣، ص٢٥٥.

يعمل الخلق بالأوامر ويجزيهم الله عوض ذلك الجنة، كما قال سبحانه: (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)[٢٢]، والبهيمة من «الإبهام» يراد بها كل دابة، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم وما أشبهها كالظبأ واليحمور، وسميت بهيمة لأنها لا تُميّز، والأنعام من «النِّعَم» لأنها من نِعَم الله على الخلق، والمراد بـ«الحلية» الحلية ذبحاً وأكلاً وانتفاعاً.

{إلا ما يتلى عليكم} أي يُقرأ عليكم مما هو محرم وهو قوله سبحانه: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)[٢٣]، {غير محلي الصيد وأنتم حرم} حال من «أحلت» أي أن التحليل في حال كونكم لا تحلّون الصيد في حال الإحرام، وهذا الحال استثناء يأتي بهذه الصورة كما تقول: «يجوز لك أن تتصرف في أموالي في حال كونك لا يجوز لك التصرف في النفائس منها» تريد أن الجواز في غيرها {إن الله يحكم ما يريد} من تحليل وتحريم وسائر الأحكام مما يراه صلاحاً.

[٣] {يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله} الشعائر جمع شعيرة، وهي الأمر المرتبط بشي كأنه من علائمه ومزاياه، فشعائر الحج: الأمور المرتبطة بالحج، وشعائر الله الأمور المرتبطة بالله، ولعل اشتقاقها من «الشعر» بمعنى ما ينبت من الإنسان، كأن الشعيرة تلازم الشيء تلازم الشعر، أو تلازم الشعار ـ الذي هو الثوب الذي على الجسد مقابل الدثار الذي هو الثوب الفوقاني ـ لبدن الإنسان. والشعائر في الآية ـ لكونها مطلقه ـ تشمل كل شيء كان أو أصبح من الأمور المرتبطة بالله مما لم ينه عنه، فمعالم الحج من الشعائر، كما أن تشييد القباب على أضرحة الأئمة الطاهرين من الشعائر. والمراد من عدم إحلال الشعائر: خرق حرمات الله.

وقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: «نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم، وقيل أنه أتى النبي (صلى الله عليه وآله) وسأله عن معالم الإيمان، ثم أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) بأنة دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر، ولما وصل إلى سرحٍ ساقه معه بها وأقبل في القابل حاجاً قد قلد هدياً، فلما قصد الرسول (صلى الله عليه وآله) معاقبته نزلت الآية»[٢٤] يريد بذلك «آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ» .

{ولا} تحلوا {الشهر الحرام} بأن تقاتلوا فيه، والأشهر الحرم هي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم {ولا} تحلوا {الهدي} وهو الشيء الذي يهديه الحاج إلى بيت الله الحرام للذبح من إبل أو بقر أو غنم، والمراد: لا تحولوا دون بلوغ ذلك إلى محله {ولا} تحلوا {القلائد} وهي جمع قلادة، ما يُقلد به الهدي من الإبل، وهو أن يُقلد في عنقها شيء ليُعلم أنه هدي لا يجوز تحليتها إذ بعد تقليدها تكون لله

---

(٢٢) سورة التوبة: ١١١.

(٢٣) سورة المائدة: ٤.

(٢٤) البحار: ج١٩، ص١٤٨.

ولا يجوز الرجوع فيها {ولا} تحلوا حال كونكم {آمين البيت الحرام} جمع «آمّ» على وزن «مادّ» من «أمّ» بمعنى قصد أي لاتتعرضوا لمن قصد البيت الحرام لأداء الحج {يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً} أي يطلبون بقصدهم الحج الفضل ـ أي الزيادة في الثواب أو المال أو غيرهما ـ من الله ورضاه مقابل من قصد الحج للإفساد فإن صده جائر.

{وإذا حللتم} عن الإحرام {فاصطادوا} الصيد الذي حرمه الإحرام، والأمر هنا للجواز لأنه في مقام توهم الحضر، وهذا دفع لما تقدم من قوله سبحانه: «غير محلي الصيد وأنتم حرم» فقد كان السياق لبيان المحرمات، ولذا أتت الآية الثانية لبيان سائر المحرمات مما أشير إلى بعضها في الآية الأولى وهو «غير محلى الصيد».

ثم إنه لما أنهى سبحانه عن تحليل تلك الحرمات، بيّن أن هذه الحرمات لا فرق فيها بين من اعتدى عليكم وبين من لم يعتد عليكم، بقوله: {ولا يجرمنكم} أي لا يحملنّكم من «جرمني فلان على أن صنعت كذا» أي حملني {شنآن} أي بغضاء وعداوة {قوم} لكم بـ {أن صدوكم عن المسجد الحرام} أي منعوكم عنه كما في عام الحديبية.

{أن تعتدوا} عليهم بتحليل المحرمات المذكورة بالنسبة إليهم {وتعاونوا} أيها المسلمون {على البر} أي الخير واجباً كان أو غير واجب {والتقوى} وهو اجتناب المحرمات، بأن يُعين بعضكم بعضاً في الأعمال الخيرية وترك الآثام {ولا تعاونوا} أيها المسلمون {على الإثم} فإذا أراد أحد منكم أن يعمل إثماً فلا تُعينوه {والعدوان} أي الظلم والتعدي، وهذا مرتبط بقوله: «أن تعتدوا» فقد جرت العادة أن يتعاون الناس على الإثم والظلم، ولذا نهى الله المسلمين عنه {واتقوا الله} اجتنبوا مخالفته وعصيانه {إن الله شديد العقاب} لمن خالفه وعصاه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦)

[٤] وفي سياق المحرمات المرتبطة بالحج ـ غالباً ـ ذكر سبحانه قسماً آخر من المحرمات وهو ما استثناه سبحانه في الآية السابقة بقوله: «إلا ما يتلى عليكم« فقال: {حرمت عليكم} أيها المسلمون {الميتة} وهي التي لم تمت بسبب شرعي من ذبح ونحر وغيره، وذلك مختلف ففي الأنعام مثلاً تحتاج التذكية إلى فري الأوداج وسائر الشرائط، وفي الصيد رميه، وفي السمك موته خارج الماء، وهكذا.. والمراد بالتحريم: أكلها، فإن التحريم الشرعي يراد منه: بحسب الأمر المتوقع منه، فتحريم الحرير يراد به لبسه، وتحريم الأم يراد به اقترابها، وتحريم المسكن يراد به سكناه {والدم} وهو ما بيّنه سبحانه في آية أخرى بقوله: (دَماً مَسْفُوحاً)[٢٥]، أما المقدار المتبقي في اللحم فلا حرمة فيه {ولحم الخنزير} وخُصّص بالذكر مع كثرة تحريم اللحوم لاعتياد الناس أكله وظنهم طيبه.

ثم لا يخفى أن المحرمات تنقسم إلى قسمين: قسم لما فيه من الأضرار.

أما ما يذكره بعض الناس ـ الآن من العلم الحديث ـ من إمكان التخلص من أضرار لحم الخنزير بالتعقيم، فليس بمحرم إذا عُقّم.

فالجواب عنه: أنه أي دليل لعدم وجود أضرار أخرى فيه بعد التعقيم لم يكشف عنها العلم إلى الآن، كما لم يهتد العلم طيلة أربعة عشر قرناً لهذا الضرر الذي اكتشف الآن.

وقسم حرم لجهة معنوية، كالذي لم يُسَمّ عليه اسم الله سبحانه، وهذا لايتوقف تحريمه على الضرر الجسدي بل يحرم لانحرافه عن الميزان المستقيم.

---

(٢٥) سورة الأنعام: ١٤٦.

{وما أهل لغير الله} الإهلال بالشيء الابتداء به {به} أي الذبيحة التي ذكر اسم غير الله عليها عند الذبح. كما تقدم في سورة البقرة[٢٦] {والمنخنقة} وهي ما خُنقت بأي نحو كان {والموقوذة} الوقذ هو الضرب، أي التي ضُربت حتى ماتت {والمتردية} التردي: الوقوع من مكان عال، والمراد بها: التي وقعت من مكان عال فماتت، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون الحيوان بهذه الكيفيات {والنطيحة} وهي التي ينطحها غيرها فتموت {وما أكل السبع} فريسة السبع: وهي التي أكل الحيوان المفترس بعضها وأبقى بعضاً، فإنه يحرم أكل الباقي {إلا ما ذكيتم} التذكية لغة هي «تمام الشيء» والمراد بها هنا: تحليل الحيوان بإجراء السنن الشرعية عليه من كون الذابح مسلماً، والتوجه إلى القبلة بالذبيحة، وكون آلة التذكية من حديد، وذكر الله حالة الذبح، وفري الأوداج الأربعة، والمراد: الاستثناء من «ما أكل السبع» وإن كان الحكم عاماً أي أنه لو أدركتم ما أكله السبع فذكيتموه فهو حلال.

وإدراكها ما عن الباقرين (عليهما السلام) حيث قالا: «إن أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه يتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه»[٢٧].

{وما ذبح على النصب} جمع «نصاب» وهي الحجارة التي كانوا يعبدونها، أي التي تذبح باسم الأوثان تقرّباً إليها {وأن تستقسموا بالأزلام} الاستقسام طلب القسمة، والأزلام جمع «زلم» وهو القدح أي السهام، فقد كان أهل الجاهلية يشترون جزوراً ثم يكتبون على سهام عشرة أسماء خاصة، فلسهمٍ حصة واحدة، ولسهم حصتان، وهكذا إلى سبعة حُصص، ويتركون ثلاثة أسهم لا حصة لها، ثم يجتمعون عشرة أشخاص فيخرج سهم باسم شخص ويعطى بمقدار حصة السهم لذلك الشخص وهكذا.. بعدما كانوا يقسمون الجذور ثمانية وعشرين قسماً، أما ثمن الجزور فقد كان على من يخرج باسم السهام التي لا حصة لها. وهذا نوع من القمار فحرمه الإسلام.

{ذلكم} أي الاستقسام بالأزلام أو جميع ما سبق من المحرمات، إتيانها {فسق} والفسق هو الخروج عن الطاعة وارتكاب المعصية {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم} قال في «مجمع البيان»: ليس يريد يوماً بعينه، بل معناه: «الآن يئس الكافرون من دينكم»[٢٨]. وروى القمي: إنه يوم نصب الإمام (عليه السلام)[٢٩] وهذا هو الأوفق بما تواترت به النصوص وذكره المفسرون من شأن نزول آية الإكمال، فقد كان الكفار يترقبون أن يترك الرسول الأمر سدىً حتى إذا قُبض ولم يقُم له خلف انقضوا على الإسلام يهدمونه، فلما نصب الرسول (صلى الله عليه وآله) الإمام يئسوا من ذلك حيث كانوا يعلمون كفاية الإمام وقدرته العظيمة، ولذا لما مات الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلم الكفار والمنافقين

---

(٢٦) سورة البقرة: ١٧٤.

(٢٧) بحار الأنوار: ج٦٢، ص١٠٧.

(٢٨) مجمع البيان: ج٣، ص٢٧٣.

(٢٩) تفسير القمي: ج١، ص١٦٢.

باغتصاب الخلافة انقضوا على الإسلام يريدون اقتلاع جذوره وقد علم الرسول (صلى الله عليه وآله) ذلك حين وصى الإمام بالصبر وإلا قامت حروب داخلية وخارجية تذهب بالإسلام.

وهنا يتساءل البعض: كيف أن الإمام لما نهض بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون؟ والجواب: أن الظروف التي تقدمت على نهضة الإمام غيّرت معالم الإسلام، ولذا احتاج الإمام إلى إرساء قواعد الدين من جديد، وذلك مما يوجب اضطراباً واختلافاً شأن الأنبياء حين يدعون أممهم إلى الخير، لكن الخطر الخارجي كان حين ذاك بعيداً حيث أن الكفار انكمشوا وقوي الإسلام ـ ولو الصوري منه ـ والحروب الداخلية لم تكن تؤثر شيئاً بالنسبة إلى انعكاس كفة الإسلام والكفر، لتميل الكفة الثانية على حساب خفة الكفة الأولى.

{فلا تخشوهم} أن يظهروا على دين الإسلام كما كنتم تخشونهم من قبل {واخشون} في أن ترتكبوا العصيان وتخالفوا أمر الله والرسل. {اليوم} أي يوم الغدير {أكملت لكم دينكم} بنصب علي (عليه السلام) خليفة من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) {وأتممت عليكم نعمتي} فإن نعمة الإسلام دون نعمة الإيمان بالولاية ناقصة {ورضيت لكم الإسلام ديناً} فإن الإسلام ذو درجات، واليوم رقيتم الدرجة القصوى فرضي الله عن المسلمين بالحال التي وصلوا إليها، و«الرضى» هنا ليس في مقابل السخط بل في مقابل النقص الأثري، كما أن من يريد بناء دار إذا بلغ منتصفها يقول: لم أرض بعد، أي لم يكمل رضاي، وإنما يقول: رضيت الآن، إذا تم بناء الدار.

وقد كان ذلك عند نصب الرسول للإمام أمير المؤمنين خليفته الرسمي بعد منصرفه من حجة الوداع بمحضر مائه وعشرين ألف من الأصحاب من الرجال والنساء، فصعد المنبر وخطب خطبة طويلة ثم قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»[٣٠] وهو آخذ بكف علي. ونزل عن المنبر وأمر المسلمين أن يسلموا عليه بإمرة المؤمنين، وبقوا هناك ثلاثة أيام حتى تمت البيعة ثم قفلوا راجعين إلى المدينة.

{فمن اضطر} إلى أكل المحرمات المذكورة {في مخمصة} وهي «القحط» يسمى بذلك لإيجابه خمص البطون جوعاً {غير متجانف} أي في حال كون المضطر لم يمِلْ {لإثم} فإن «الجنف» بمعنى الميل، فلا يفرط في الأكل، كأن يكون محتاجاً إلى شرب نصف رطل من الخمر ـ مثلاً ـ فيشرب رطلاً، وكذا بالنسبة إلى الميتة وسائر المحرمات {فإن الله غفور} يستر هذه السيئة الذاتية بمعنى عدم العقاب عليها {رحيم} يرحم الناس فلا يجبرهم على الترك حتى عند أشد الضرورات.

---

(٣٠) الكافي: ج١، ص٢٩٥.

[٥] وبعد بيان قسم من المحرمات، يأتي السياق لبيان قسم من المحللات لتتعادل الكفتان، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر بقتل الكلاب[٣١]، فسُئل عن الاستثناء، فنزلت الآية تحلل ما يصطاده الكلاب المعلمة والتي فيها نفع، ونهت عن إمساك ما لا نفع فيه وأمرت بقتل الكلب العقور وما يضر ويؤذي {يسألونك} يا رسول الله {ماذا أحل لهم} من المأكولات بقرينة السياق {قل} يا رسول الله: {أحل لكم الطيبات} والطيب هو الشيء الذي لا خبث فيه مما لا ينفر منه الطبع، وإذن الشارع في بعض المأكولات دون بعض لهذا الميزان، وإن لم يعرف العرف أن هذا طيب وهذا خبيث، فما أباحه الشارع فهو طيب وإن ظنّه العُرف خبيثاً، وما حرمه الشارع فهو خبيث وإن ظنّه العُرف طيباً.

{و} أحل لكم صيد {ما علمتم من الجوارح} وحذف المضاف أي «صيد» لدلاله قوله: «مما أمسكن عليكم»، و«الجوارح» جمع جارحة، سمي بذلك الكلب وسائر السباع لأنها تجرح الصيد، ثم خصّص سبحانه عموم الجوارح بقوله: {مكلبين} أي في حال كونكم أصحاب كلاب معلّمة، يقال: «كلّب الكلب» إذا علّمه الصيد {تعلمونهن} أي الكلاب الجارحة.

{مما علمكم الله} فإن الله قد علمكم تعليمهن، ولعل الإتيان بضمير «هن» الذي هو للمؤنث العاقل لانسجام سياق التعليم والتعلم مع ذلك، وإلا فالقاعدة «تعلموها» كما أن فائدة «مما علمكم الله» لإيقاظ الضمير وتوجيهه إلى الله سبحانه، فإن القرآن الحكيم يربط الأحكام والقصص بذاك الرباط العام وهو معرفة الله وسوق النفس إليه في كل مقام ومناسبة {فكلوا} أيها الصائدون {مما أمسكن} أي حفظن واصطدن تلك الكلاب {عليكم} أي لأجلكم لا لأنفسهن، فإن ذلك حرام {واذكروا اسم الله عليه} أي على «ما أمسكن» حين إرسال الكلب. ولا يخفى أن بهذا القيد أي «مكلبين» خرج صيد سائر الجوارح إذا لم يدرك الإنسان ذكاته.

روى الحضرمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: سألته عن صيد البزاة والصقور والفهود والكلاب؟ فقال: «لا تأكل إلا ما ذكيت إلا الكلاب». فقلت: فإن قتله؟ قال: «كل، فإن الله يقول: وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه» ثم قال (عليه السلام): «كل شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها إلا الكلاب المعلمة فإنها تمسك على صاحبها»[٣٢] وإنما تعدى الإمساك بـ «على» لإفادة الإمساك ثقلاً ومشقة، أو يتضمن معنى

---

(٣١) فقه القرآن: ج٢، ص٢٤٥.

(٣٢) وسائل الشيعة: ج٢٣، ص٣٣٣.

«الرد» فالكلب يرد بعض الحيوان لصاحبه وقد أكل بعضه، كما قال سبحانه: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)[٣٣].

{واتقوا الله} فيما أمركم ونهاكم فلا تتناولوا ما حرمه {إن الله سريع الحساب} فإن الإنسان وإن ظنّ طول المدة في الدنيا وأنه بعيد جزاؤه، لكن لا تمض إلا مدة يسيره وإذا به يرى نفسه أمام الحساب. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً»[٣٤].

[٦] {اليوم} الذي تمّ فيه بيان كل الأحكام، ونوجز المحللات فنقول: {أحل لكم الطيبات} وهذا عام يشمل الطيب من المآكل والمناكح والمساكن والملابس وغيرها بقرينة «والمحصنات» بخلاف الآية السابقة التي كانت خاصة بالمأكل بحكم السياق، وهذه الآية تدل على كون الأصل في كل الأشياء الحِلّ إلا ما خبُث، ومن المعلوم أن الخُبث لايُميّز إلا بالشرع أو بالعقل نادراً {وطعام الذين أوتوا الكتاب} أي الذين أرسل لهم الكتاب السماوي كاليهود والنصارى والمجوس {حل لكم} والطعام إما المراد به الحبوب، كما هو المروي والمتعارف إلى اليوم، فإن كلمة «باعة الأطعمة» أو ما أشبهها تنصرف إلى باعة الحبوب، أو المراد به العام لكل طعام، وقد استثني من ذلك الذبائح، لقوله سبحانه: (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ)[٣٥]، وأُلحق به غيره إجماعاً، كما استثني ما لامسه الكتابي برطوبته لأنهم مشركون لقوله سبحانه: (تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٣٦]، وفي آية أخرى حكم بنجاسة المشرك بقوله سبحانه: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)[٣٧]، وتفصيل البحث في الفقه[٣٨].

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: ما الفائدة من هذا التنصيص والحال أن طعام غير أهل الكتاب حِلٌّ أيضاً؟ والجواب: إنه من باب المورد والقيد الغالب لابتلاء المسلمين به غالباً، كما يدل على ذلك {وطعامكم حل لهم} ومن المعلوم أن طعام المسلم حِلٌّ حتى للمشرك الوثني، ثم لو قلنا: إن الجملة عامة لكل طعام، فهل معنى حلية طعامنا لهم الحلّية بالنسبة إلينا أي أن طعامهم حل لنا، أو الحلية بالنسبة إليهم أي يجوز لهم أن يطعموه؟ الظاهر الثاني، وإن كان لايبعد الأول لأن قاعدة «ألزموهم بما التزموا به» تقتضي كون الحرام عندهم من أطعمتنا كذبائحنا بالنسبة إلى اليهود مثلاً، لا يجوز لهم أن يطعموه. وفي الكلام مناقشه.

---

(٣٣) سورة الأحزاب: ٣٨.

(٣٤) نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

(٣٥) سورة البقرة: ١٧٤.

(٣٦) سورة الأعراف: ١٩١.

(٣٧) سورة التوبة: ٢٨.

(٣٨) موسوعة الفقه: ج٣.

{و} أحلت لكم {المحصنات} أي العفيفات اللاتي أحصن أنفسهن عن الحرام {من} النساء {المؤمنات} بأن تنكحوهن، أما الزانيات غير العفيفات فالمشهور بين العلماء جواز نكاحهن بالسُّنّة، ولا مفهوم للآية حتى يمنع عن ذلك، لما ثبت في الأصول من عدم حجية مفهوم اللقب وإنما خُصّصن لأنهن من «الطيبات». {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب} أي أعطوا الكتاب {من قبلكم} وهم اليهود والنصارى والمجوس . والمجوس أهل كتاب على الأصح . وقد اختلف العلماء في جواز نكاحهن نكاحاً دائماً بعد كون المشهور جواز نكاحهن منقطعاً، ولو قلنا بعدم جواز الدائم فهو تخصيص بالسنّة، وقد ثبت جواز تخصيص الكتاب بالسنة الواردة {إذا آتيتموهن أجورهن} أي أعطيتموهن مهورهن، وليس معنى «الإعطاء» الإعطاء الفعلي بل ذلك وإن كان في المستقبل، ولا مفهوم للآية بالنسبة إلى الحكم الوضعي حتى يكون: «من لا يريد الإعطاء إطلاقاً ولم يعط تُحرم عليه المرأة المزوجة» بل المراد: الحكم التكليفي، أي أن ذلك حرام لا يجوز وهذا تحريض للإعطاء.

في حال كونهم {محصنين} بالمسلمة أو الكتابية، بأن كان اقترابكم منهن بالإحصان والنكاح {غير مسافحين} تأكيد لقوله «محصنين» والسفاح هو الزنا {ولا متخذي أخدان} الخِدن هو الصديق، وهو أن ينفرد الرجل بالمرأة يزني بها دائماً فهي وهو خدنان، أي أنه لا يجوز للرجل بالنسبة إلى المسلمة والكتابية ذلك كما لا يجوز العكس. وقد تقدم شبه هذا في سورة النساء، ومعنى الآية جملةً: أن مقاربة المرأة المسلمة العفيفة والكتابية العفيفة يجوز لكم ويطيب، وأعطوا مهورهن، لكن اللازم أن يكون الاقتراب بالنكاح لا بالسفاح أو باتخاذهن أخداناً كما يكثر الأمران عند غير المسلمين.

ثم إن ما ذكرناه من المحرمات والمحللات كلها من مقتضيات الإيمان الواجب التمسك به {ومن يكفر بالإيمان} تعبير آخر عن المعصية والخروج عن الطاعة، ولعل الإتيان بهذه اللفظة هنا لإفادة أن الكفر . في باب المحللات والمحرمات . ليس بالأصول وإنما هو بالفروع، وقد تقدم في بعض الآيات أن الكفر قسمان: كفر بالأصول هو الموجب لخروج الإنسان عن كونه مسلماً، وكفر بالفروع، كما قال سبحانه: (وَمَنْ كَفَرَ)[٣٩]، وقال (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ)[٤٠]، وهو الموجب لكون الإنسان فاسقاً {فقد حبط عمله} معنى «الحبط» عدم استحقاق الثواب على العمل كما قال سبحانه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[٤١]، {وهو} الكافر بالإيمان {في الآخرة من الخاسرين} اللذين خسروا أنفسهم حيث استحقوا العقاب حين استحق سائر المطيعين الثواب.

---

(٣٩) سورة النور: ٥٦.

(٤٠) سورة إبراهيم: ٨.

(٤١) سورة المائدة: ٢٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٩) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (١٠)

[٧] وفي سياق ذكر الطيبات والملاذ الجسدية يأتي دور الطيبات والملاذ الروحية التي من أكثرها طيباً ولذةً الصلاة بما لها من طهارة {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة} أي أردتم إياها فان المريد لشيء يقوم إليه ليأتي به، ألا ترى أن الناس يقعدون إلى أشغالهم فإذا أذّن المؤذن قاموا إلى الصلاة ليأتوا بها {فاغسلوا وجوهكم} من قصاص الشعر إلى الذقن طولاً، وما اشتملت عليه الإبهام والوسطى عرضاً، بالماء الطاهر المباح، غسلاً طبيعياً، من الأعلى إلى الأسفل {و} اغسلوا {أيديكم} ولما كان المنصرف من «اليد»: تمام اليد إلى الكتف، أخرجه بقوله: {إلى المرافق} فإن الغسل يستثنى منه غسل العضد ولذا لا يستفاد من «إلى» هذه كونها غاية للغسل بل المستفاد كونها غاية للمغسول، فإنك لو قلت لمصاب بالمرض: ادهن رجلك إلى الركبة. لم يستفد عرفاً منه لزوم كون التدهين من الإصبع إلى الركبة بل استفيد كون الفخذ خارجاً عن التدهين، وعلى هذا فاللازم الابتداء من الأعلى لأنه الغسل الطبيعي الذي وردت به السنة {وامسحوا برؤوسكم} «الباء» للتبعيض أي: بعض رؤوسكم، وهو الربع المقدم من الرأس من المفرق إلى قصاص الشعر {و} امسحوا {أرجلكم} والمراد بهما ظهرهما {إلى الكعبين} وهما قبتا القدمين، وإنما قُرء بالنصب مع أنه معطوف على المجرور باعتبار المحل، وقد كان الترتيب المجزي قطعاً في باب الوضوء غسل الوجه ثم اليد اليمنى ثم اليسرى ثم مسح الرأس ثم الرجل اليمنى ثم اليسرى، والمسح ببقية بلل الوضوء.

{وإن كنتم جنباً} «الجُنُب» لفظ يقع على المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، بلفظ واحد، هو من «البعد»، كأن الإنسان إذا اعترته هذه الحالة يبتعد من النظافة، وحصول الجنابة بالإنزال أو الإدخال {فاطهروا} من «تطهر» ثم أدغمت التاء في الطاء وجيء بهمزة الوصل لامتناع الابتداء بالساكن، والتطهير هو الاغتسال بالارتماس في الماء مرة واحدة، أو الترتيب بغسل الرأس والرقبة ثم

الجانب الأيمن ثم الجانب الأيسر {وإن كنتم مرضى} لا تتمكنون من استعمال الماء للوضوء {أو على سفر} أي مسافرين. وقد سبق أن ذكر السفر لغلبة عدم وجود الماء فيه. {أو جاء أحد منكم من الغائط} و«الغائط» هو المحل المنخفض من الأرض وسمي البراز به بعلاقة الحال والمحل وذلك كناية عن الحدث {أو لامستم النساء} وهو كناية عن الجماع {فلم تجدوا ماءً} هذا مرتبط بالسفر والحدث واللمس {فتيمموا} معنى الآية بالجملة: إن مريد الصلاة يلزم عليه الوضوء والغسل إن كان جنباً. وإن كان مريضاً يضره الماء أو مسافراً أو مجامعاً، ولم يجد الماء للغسل أو الوضوء فليتيمّم ويبقى قوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط» فإنه ليس في مرتبة تلك الأمور، ولعل الإتيان به لمراعاة غلبة التخلي عند إرادة الصلاة.

وقد سبق أن التيمم مصدر باب التفعل بمعنى القصد، أي اقصدوا {صعيداً} أي أرضاً {طيباً} ليس بنجس ولا مغصوب {فامسحوا بوجوهكم} الباء للتبعيض، أي بعض وجوهكم، وهو من قصاص الشعر إلى طرف الأنف الأعلى {وأيديكم} من الزند إلى رؤوس الأصابع {منه} أي مبتدءاً بالمسح من ذلك الصعيد، فاللازم أن يضرب باليدين على الأرض ثم يمسح بها ليصدق «منه».

{ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج} من ضيق فأمره بالوضوء والغسل والتيمم ليس لأجل التضييق عليكم {ولكن يريد} الله سبحانه {ليطهركم} وينظفكم من الأدران والأوساخ الظاهرية والباطنية، أما تطهير الغسل والوضوء من الأدران فظاهر، وأما تطهير التيمم فقد ثبت في العلم الحديث أن التراب يقتل الجراثيم بمرتبة أضعف من مرتبة الماء {وليتم نعمته عليكم} بإرشادكم إلى مصالحكم كلها بعدما أرشدكم إلى أكبر النعم وهو الإيمان {لعلكم تشكرون} إياه بما أنعم عليكم وأرشدكم إلى مصالحكم وما يقربكم منه سبحانه.

[٨] {و} إذ أتم سبحانه نعمته عليكم فـ {اذكروا نعمة الله عليكم و} اذكروا {ميثاقه الذي واثقكم به} أي عهده الذي عاهدكم به من الإيمان والسمع والطاعة، فقد أخذ سبحانه ميثاق الأمم على يد الأنبياء {إذ قلتم} بعد ما آمنتم: {سمعنا وأطعنا} فعليكم حسب المعاهدة السمع والطاعة وعلى الله الإسعاد في الدنيا والآخرة، والله سبحانه فعل ما عليه فعليكم أن تفعلوا ما عليكم {واتقوا الله} فلا تخالفوا أوامره ونواهيه {إن الله عليم بذات الصدور} في «ظلال القرآن» قال: و«ذات الصدور» أي صاحبة الصدور الملازمة لها اللاصقة بها، وهي كناية عن النيات المقيمة والأسرار الدفينة والمشاعر التي لها صفة الملازمة للقلوب والاستقرار في الصدور وهي على خفائها هناك مكشوفة لعلم الله والله بها عليم.

[٩] ثم يرجع السياق إلى لزوم الجادة وعدم الاعتداء. كما سبق. في قوله: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ)[٤٢]، كما تجد مثل ذلك كثيراً في القرآن الحكيم حيث يلطف الجو بذكر الصلاة ونحوها

---

(٤٢) سورة المائدة: ٣.

ثم يرجع إلى المطلب السابق بعدما لطف الجو وربطه بالطابع الإلهي العام وأخرج الكلام عن كونه مملاً. ثم إن ما يأتي هو من الميثاق الذي واثق الله عباده به {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله} أي كثيري القيام لأمر الله سبحانه ورضاه {شهداء بالقسط} أي بالعدل في كل أمر من الأمور {ولا يجرمنكم} أي لا يحملنكم {شنآن قوم} أي: عداؤهم لكم {على ألاّ تعدلوا} في الحكم عليهم وعند مخالطتهم، فإن الإنسان إذا عادى شخصاً لا يعدل بالنسبة إليه ـ غالباً ـ انتقاماً وشفاءً لما في صدره من الضغينة عليه، ولذا كان من أسس الإسلام قول الحق في الرضى والغضب {اعدلوا هو} أي العدل {أقرب للتقوى} وليس المفهوم: أن الجور قريب إلى التقوى، فإن التفضيل في مثل المقام ينسلخ عن معناه اللغوي {واتقوا الله} باجتناب نواهيه والإتيان بأوامره {إن الله خبير بما تعملون} فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

[١٠] {وعد الله الذين آمنوا} بالله ورسله وما جاءوا به {وعملوا} الأعمال {الصالحات} وذلك يلازم ترك السيئات {لهم مغفرة} لذنوبهم {وأجر عظيم} وجملة «لهم مغفرة» في موضع نصب مفعولاً لـ «وعد» ولعلّ سر الإتيان بالجملة، إفادة أن المطلب مقطوع به، فإن الجملة الاسمية تفيد اليقين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لاَكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلاَدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (١٣) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤)

[١١] {والذين كفروا} فلم يؤمنوا إيماناً صحيحاً {وكذبوا بآياتنا} براهيننا وأدلتنا التي أقمناها على التوحيد وسائر الأصول {أولئك أصحاب الجحيم} الذين يصاحبون النار ويخلدون فيها.

[١٢] ثم ذكّر المؤمنين بنعمة من نعمه سبحانه وأنه كيف وفى لهم بميثاقه حيث أنقذهم من كيد أعدائهم {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ} أي قصد وأراد {قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم} والمراد بـ «بسط اليد» إيذاؤهم وقتلهم واستئصالهم. قال القمي يعني: أهل مكة من قبل فتحها، فكف أيديهم بالصلح يوم الحديبية[٤٣]. وقيل: إن المراد بذلك العموم، أي من أراد السوء بالمسلمين. وقيل: المراد بالقوم خصوص بني النظير حيث أرادوا قتل النبي (صلى الله عليه وآله) فأُخبر بذلك فنجى (صلى الله عليه وآله) من كيدهم. وقيل غير ذلك {فكف أيديهم عنكم} أي منعهم من الفتك بكم بل نصركم عليهم {واتقوا الله} بامتثال أوامره واجتناب زواجره {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} يكلون إليه سبحانه أمورهم ويجعلونه نصيراً وظهيراً لهم.

[١٣] لو كانت الآية السابقة حول بني النظير ـ وهم من اليهود ـ لكان الارتباط بين الآيتين واضحاً، إذ بيّن سبحانه هنا أنهم خانوا الأنبياء مع ما تفضل الله عليهم بكل خير ونعمة، فكيف لا يريدون خيانة الرسول (صلى الله عليه وآله)؟! ويحتمل أن يكون الارتباط من جهة الميثاق فيريد سبحانه أن يذكر المسلمين حتى لا يكونوا كاليهود الذين خانوا ونقضوا الميثاق بعد أخذه منهم إذ قد سبق قوله: (وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ)[٤٤] {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل} العهد الأكيد الذي أخذه الله منهم على لسان أنبيائه {وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً} من «النقب» وهو الكشف، فكأن النقيب ـ وهو كفيل

(٤٣) تفسير القمي: ج١، ص١٦٣.

(٤٤) سورة المائدة: ٨.

القوم ـ ينقب عن أسرارهم ويكشف ضمائرهم ليسير بهم نحو الخير والصلاح في المجتمع. أي أمرنا موسى بأن يبعث من الأسباط الاثني عشر، اثنى عشر رجلاً كالطلائع يتحسّسون ويأتون بني إسرائيل بأخبار أرض الشام وأهلها الجبارين، فاختار من كل سبط رجلاً يكون لهم نقيباً ـ أي أميناً كفيلاً ـ فرجعوا يثنون قومهم عن قتالهم لما رأوا من شدة بأسهم وعظم خلقهم إلا رجلين منهم، بن يوقنا ويوشع بن نون {وقال الله إني معكم} أي قال لبني إسرائيل، وكونه معهم بمعنى أنه يؤيدهم وينصرهم ويهديهم {لئن أقمتم الصلاة} يا معشر بني إسرائيل {وآتيتم الزكاة} أي أعطيتموها {وآمنتم برسلي} الذين يأتون من بعد موسى (عليه السلام) ولذا أخّر الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة {وعزرتموهم} أي عظمتموهم، أو نصرتموهم {وأقرضتم الله قرضاً حسناً} أي أنفقتم في سبيله، فإنه كالقرض الذي يُعطى ثم يُؤخذ، والمراد بكونه «حسناً» أن لا يكون فيه مَنّ ولا أذى ولا دواعٍ غير الله سبحانه {لأكفرن عنكم} أي أذهبن، ومعنى «التكفير» التغطية، أي أُغطي بالغفران {سيئاتكم} التي صدرت منكم، وهو جواب «لئن أقمتم الصلاة» {ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار} أي من تحت قصورها وبساتينها {فمن كفر بعد ذلك} أي بعد أخذ الميثاق {منكم} يا بني إسرائيل {فقد ضل سواء السبيل} أي أخطأ وسط الطريق، فإن سواء كل شيء وسطه.

[١٤] {فبما نقضهم ميثاقهم} أي بسبب نقض اليهود ميثاقهم الذي كان بيني وبينهم حيث أنهم تركوا الصلاة ومنعوا الزكاة وكذبوا بالرسل وقتلوهم {لعناهم} أي طردناهم عن ساحة القرب وقطعنا رحمتنا عنهم حيث جعلنا بعضهم قردة وخنازير وجعلناهم مشردين مطرودين دائماً لا تقوم لهم قائمة {وجعلنا قلوبهم قاسية} يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق وتميل نحو الظلم والكفر. وجعله سبحانه قلوبهم قاسيه، بمعنى: تركه اللطف بهم حتى تردّت ملكة أخلاقهم، كمن يعصي أُستاذه في أوامره فيترك تدريسه وتهذيب أخلاقه حتى يصبح جاهلاً ذا أخلاق سيئة.

{يحرفون الكلم} جمع كلمة {عن مواضعه} وتحريفهم الكلم على قسمين: قسم بمَحْو بعض التوراة، وقسم بتأويله على غير المعنى المقصود منه.

{ونسوا حظاً} أي قسماً {مما ذكروا به} أي من الأحكام التي ذكّرناهم بها في التوراة فإنه قد فقد بعض التوراة مما لا يعلّمونه للناس، أو المراد من «النسيان» أنه صار كالمنسي عندهم من جرّاء عدم العمل، فإن النسيان يطلق على ما أهمله الإنسان يقال: «نسيني» أي أهملني، وقال سبحانه: (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ)[٤٥]، {ولا تزال} يا رسول الله {تطّلع} باستمرار {على خائنة منهم} أي طائفة خائنة، أو نفس خائنة، إذا قالوا قولاً خالفوه وإذا عاهدوا عهداً نقضوه ـ كما أراد بنو النظير الغدر به والخيانة بعد الميثاق ـ {إلاّ قليلاً منهم} إما استثناء من الجميع أو من الجملة الأخيرة، فإن «قليلاً منهم» ليسوا كذلك

---

(٤٥) سورة التوبة: ٦٧.

كعبد الله بن سلام، أو إن «قليلاً منهم» لا يخون {فاعف عنهم} أي عن هؤلاء {واصفح} أي تجاوز، فإنك لست منتقماً، وأن ذلك ليس من شأنك {إن الله يحب المحسنين} فإن العفو والصفح إحسان، والإحسان محبوب حتى بالنسبة إلى المجرم.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٥) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٦) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٧) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨)

[١٥] هذا كان شأن اليهود، أما النصارى فليسوا أحسن حالاً من اليهود في بعض الجهات {ومن الذين قالوا إنا نصارى} قولاً باللفظ لا اعتقاداً بالقلب، كما تقول: فلان يقول إني مسلم، تريد بذلك أنه ليس بمسلم حقيقةً بل مسلم قولاً {أخذنا ميثاقهم} من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل واتباع أوامر الله {فنسوا حظاً مما ذكروا به} كما نسي اليهود ذلك من ذي قبل {فأغرينا} التسليط والتحرّش والتحريض {بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} فإنهم انقسموا إلى أقسام وأخذ بعضهم يعادي بعضاً عداءً لا مثيل له، حتى إن عداء بعضهم بلغ إلى حد لم يبلغ عداؤهم لليهود والمسلمين والوثنيين، وقد شهد التاريخ قديماً مذابح في فرق النصارى ومعاداة الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس فعلاً لا يحتاج إلى برهان، وهذه إحدى معجزات القرآن الحكيم، كإخباره عن ذلّة اليهود (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ)[٤٦].

وهنا سؤال وهو: كيف يكون إلى يوم القيامة، وفي زمان المهدي (عليه السلام) الكلُّ يُسلم وجهه إلى الله؟ ثم إن يوم القيامة إنما يكون بعد موت الناس عشرات السنوات؟

والجواب: إن هذا معناه: بقاء العداوة ما بقوا، يُعبّر عن استمرار الشيء إلى الآخر بمثل هذا التعبير.

{وسوف} في يوم القيامة {ينبئهم الله} أي يخبرهم سبحانه {بما كانوا يصنعون} ويقف التعبير إلى هذا الحد ليرسم صورة من التهديد، كما تقول للمجرم: غداً أنبئك بما عملت اليوم، تريد بذلك تهديده بالعقاب القاسي.

[١٦] ثم خاطب سبحانه أهل الكتاب بصورة عامة لهدايتهم سواء السبيل: {يا أهل الكتاب} أيها اليهود والنصارى ـ ولعل المجوس أيضاً داخلون في الخطاب ـ {قد جاءكم رسولنا} محمد (صلى الله

---

(٤٦) سورة البقرة: ٦٢.

عليه وآله) {يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب} من أحكام الله سبحانه التي عارضت مصالحهم فأخفوه عن الناس إبقاءً على كيانهم وانحرافهم {ويعفو عن كثير} ممّا استوجبوه من العقاب، أو يعفو عن بعض الأحكام التي أوجبت عليهم العقوبة، كما قال سبحانه: (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)[٤٧]، فالفرصة سانحة الآن لتتداركوا ما فات منكم.

{قد جاءكم} يا أهل الكتاب {من الله نور} هو الرسول فكما أن النور الخارجي يُهتدى به إلى الأمور المحسوسة في الظلمة، كذلك النور المعنوي يُهتدى به إلى دروب الحياة في ظلمات الأهواء والجهل {وكتاب مبين} هو القرآن، فإنه واضح لا لبس فيه ولا غموض.

[١٧] {يهدي به} أي بكل واحد من «النور والكتاب»، كما قال سبحانه: (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)[٤٨] أي كل واحد منهما {الله من اتبع رضوانه} أي من اتبع رضوان الله ـ أي رضاه ـ بقبول القرآن ونبوة محمد (صلى الله عليه وآله) {سبل السلام} أي طُرُق السلامة في كل شيء، السلامة في الدين، والسلامة في الدنيا، والسلامة في الآخرة للفرد وللمجتمع {ويخرجهم من الظلمات إلى النور} فإن الحياة ظلمات لايدري الإنسان كيف يسير في دروبها، وبالقرآن والنبي يهتدي إلى الحق ويُنير طريقه {بإذنه} بإذن الله ولطفه {ويهديهم إلى صراط مستقيم} يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

[١٨] إنه يهدي إلى الصراط المستقيم في العقيدة لا الاعتقاد بأن المسيح هو الله أو الاعتقاد بأن لله أبناء {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} فإنه سواء جعلوه إلهاً واحداً أو شريكاً له، فقد كفروا، إذ إنكار الله سبحانه والتشريك معه كلاهما كفر {قل} يا رسول الله في إبطال قولهم: {فمن يملك من الله شيئاً} أي من يقدر على أن يدفع أمراً من أوامر الله وإرادة من إرادته {إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً} إن النصارى يعترفون بذلك، وأنه بإمكان الله أن يهلك كل أولئك، فكيف يجتمع هذا الاعتراف مع الاعتقاد بألوهية المسيح؟ إن الإله لا يمكن لأحد مخالفة أمره التكويني فكيف يتمكن أحد إهلاكه؟

{ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما} فكيف يمكن أن يكون له شريك مع أن كل شيء يُتصور فهو ملك لله؟ وهل يمكن أن يكون إلهٌ مملوك؟ {يخلق ما يشاء} إن شاء خلق من غير ذكر ولا أنثى كآدم وحواء (عليهما السلام)، وإن شاء خلق من ذكر وأنثى كسائر الناس، وإن شاء خلق من أنثى دون ذكر كالمسيح (عليه السلام)، فليس في خلقه دلالة على ألوهيته كما زعمت النصارى {والله على كل شيء قدير} ليست قدرته منحصرة في شيء أو أشياء خاصة حتى إذا كان قد خلق بذلك الشكل «بشكل عيسى» دل على أنه ليس من خلقه.

---

(٤٧) سورة النساء: ١٦١.

(٤٨) سورة البقرة: ٢٦٠.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاء وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (٢١) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢٢) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٣) قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤)

[١٩] {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} فإن النبي لما حذّرهم نقمة الله وعذابه قالوا: نحن أبناؤه، والابن الحبيب لا يخاف من نقمة الأب الودود {قل} يا رسول الله لهؤلاء المفترين: {فلم يعذبكم} الله {بذنوبكم}؟ حيث تعترفون بما حكى القرآن عنهم: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً)[٤٩]، فإن كنتم أبناء أحباء لم يكن معنىً للعذاب، ولعل المراد من «المستقبل»: الماضي، أي لِمَ عذبكم سابقاً بذنوبكم حيث جعل منكم القردة والخنازير وأشباه ذلك؟ {بل أنتم} أيها اليهود والنصارى {بشر ممن خلق} تعالى إن أحسنتم جُوزيتم وأن أسأتم جُوزيتم كما يُجازى غيركم من الناس {يغفر لمن يشاء} من العاصين {ويعذب من يشاء} منهم، لأنه لا بنوّة ولا عواطف خاصة بين الله وبينكم {ولله ملك السماوات والأرض} فليس شيء من نفس الله حتى لا يملكه سبحانه. كما تدعون أنتم من كونكم أبناءه. {وما بينهما} من سائر المخلوقات والمراد بالسماء هنا: الكواكب وما يُرى في ناحيتها. كما هو المنصرف. حتى يتصور ما بينهما، لا جهة العلو {وإليه} سبحانه {المصير} المرجع والمآل، فليس هناك غيره يملك شيء أو يرجع إليه في أمر.

[٢٠] {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا} محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) {يبين لكم} الأصول والفروع {على} حين {فترة من الرسل} أي انقطاع منهم، فلم يكن قرب بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) نبي، وقد كنتم في جهالة وضلالة، والآن جاء المعلم المنقذ الهادي. ولعل سر «تبيين الأمر» وبوضوح أن الدنيا لا تستقيم إلا بهدى السماء، فإنه لما انقطع الوحي في الفترة ساد العالم خراب وفوضى لا مثيل لها، وبذلك يكون تجربة عملية، وإنما جاء الرسول لئلاّ تحتجوا و {أن تقولوا} يوم

(٤٩) سورة البقرة: ٨١.

القيامة: {ما جاءنا من بشير ولا نذير} حتى نهتدي ونصلح {فقد جاءكم بشير} لمن آمن واتقى بالجنة {ونذير} لمن كفر أو عصى بالنار {والله على كل شيء قدير} يقدر على أن يرسل الرسول، فليس لشخص أن يقول: كيف يكون هذا رسول؟

[٢١] ويرجع السياق إلى قصة بني إسرائيل الذين نقضوا كل المعاهدات والمواثيق ولم يفوا لموسى نبيهم المعترف به، فكيف يفون لغيره ممن لا يعترفون به عناداً وحسداً؟! {و} اذكر {إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم} فقابِلوها بالإطاعة واتباع الأحكام {إذ جعل فيكم أنبياء} فقد كان سبعون نبياً في عهد موسى (عليه السلام). ولعل سر كثرة الأنبياء (عليهم السلام) في تلك الأزمنة كون البشر في مثل حال الأطفال الذين يحتاجون إلى عدد من المربين، بخلاف عهدي عيسى (عليه السلام) والرسول (صلى الله عليه وآله) حيث نضج البشر أكثر فأكثر، كالكبار الذين لا يحتاجون إلاّ إلى مرشد واعٍ.

وهنا نكتة لا بد من ذكرها وهي أن الانهزامية الغربية التي غزت نفوس المسلمين جعلتهم يفكرون فيما يخص الأنبياء (عليهم السلام) والأمم كما فكر «دارون» وتلاميذه القائلون بـ«نظرية التطور» مع العلم أن القرآن والسنة يكذّبون ذلك وأن أول بشر على وجه الأرض كان نبياً أوتي النبوة من بين جميع أولاده وزوجته الذين بُعث إليهم نبياً. وهكذا تسلسلت الأمم كلما ابتعدوا عن النبي توحشوا وكلما اقتربوا إليه ارتقوا في مدارج الإنسانية. وبنو إسرائيل كانوا أمة بعيدة عن الإنسانية والفضيلة ـ بأنفسهم ـ لا أن من هم قبلهم كانوا أكثر توحشاً كما يقول أصحاب «نظرية التطور» ويتصورون كذباً واختلاقاً وتقليداً أن إنسان الغاب وقبله تطور من القرد، ومن حسن الحظ أن علماء الغرب نقدوا رأي «دارون» وأقاموا أدله على بطلانه، لكن المنهزمين عندنا لا زالوا في هزيمتهم النكراء يلعقون قصاع «دارون».

{وجعلكم ملوكاً} فقد كان فيهم الملوك والساسة والقادة {وآتاكم} أي أعطاكم {ما لم يؤت أحداً من العالمين} من إنزال المنّ والسلوى والتفضيل على سائر الأمم الذين في زمانهم، بجعلهم من نسل الأنبياء، ولبث الأنبياء فيهم، وجعلهم ملوكاً، وإغراق أعدائهم إلى غيرها.

[٢٢] {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة} وهي أرض الشام التي قُدست وطُهّرت من الشرك وبوركت بكثرة الأشجار والأنهار وطيب الهواء وكثرة الأنبياء فيها، وقد كانوا في مصر عبيداً وهاهم قد نجوا من أعدائهم، ويريد الله بهم أن يدخلوا الشام ليكونوا فيها سادةً وملوكاً {التي كتب الله لكم} فيها السيادة والسعادة {ولا ترتدوا على أدباركم} أي لاترجعوا عن الأرض التي أُمرتم بدخولها {فتنقلبوا خاسرين} سعادة الدنيا وثواب الآخرة، بسبب تخيّركم الأمكنة المريحة لكم في الدنيا، وعدم سماع أمر الله الموجب لحرمانكم من الثواب في الآخرة.

[٢٣] {قالوا يا موسى إن فيها} في الأرض المقدسة {قوماً جبارين} شديدي البأس والبطش {وإنا لن ندخلها} أي الأرض المقدسة {حتى يخرجوا} أي يخرج الجبارون {منها} هم بأنفسهم بدون تعب أو نصب أو قتال {فإن يخرجوا منها فإنا داخلون} فيها.

قال في «المجمع» . بتخليص .: قال المفسرون: لما عبر موسى وبنوا إسرائيل البحر وهلك فرعون، أمرهم سبحانه بدخول الأرض المقدسة، فلما نزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول، فبعث موسى من كل سبط رجلاً وهم الذين ذكرهم الله في قوله: (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً)[٥٠]، فعاينوا من عظم شأنهم وقوتهم شيئاً عجيباً فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسى (عليه السلام) بذلك، فأمرهم أن يكتموا ذلك فوفى اثنان منهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وعصى العشرة وأخبروا بذلك وفشا الخبر في الناس، فقالوا: إن دخلنا عليهم تكون نساؤنا وأهالينا غنيمة لهم، وهموا بالانصراف إلى مصر وهموا بيوشع وكالب أن يرجموهما بالحجارة، فاغتاظ لذلك موسى وقال: «إني لا أملك إلا نفسي وأخي»، فأوحى الله إليهم: «إنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة وإنما يخرج منهم من لم يعص الله في ذلك». فبقوا في التيه أربعين سنة في ستة عشر فرسخاً وهم ستمائة ألف مقاتل لاتتخرّق ثيابهم وتثبت معهم وينزل عليهم المن والسلوى، ومات النقباء غير يوشع وكالب، ومات أكثرهم ونشأت ذريتهم فخرجوا إلى حرب أريما وفتحوها[٥١].

[٢٤] {قال رجلان} هما يوشع وكالب {من الذين يخافون} الله تعالى فيتبعون أوامره وزواجره {أنعم الله عليهما} بالدين والعقل {ادخلوا} يا بني إسرائيل {عليهم} أي على هؤلاء الجبارين {الباب} أي باب المدينة {فإذا دخلتموه} أي الباب {فإنكم غالبون} فقد كان أخبرهم موسى (عليه السلام) بالنصر {وعلى الله فتوكلوا} في نصرة الله لكم على الجبارين {إن كنتم مؤمنين} إيماناً حقاً، فإن من توكل على الله كفاه.

---

(٥٠) سورة المائدة: ١٣.

(٥١) مجمع البيان: ج٣، ص٣٠٨.

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٧) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآَخَرِ قَالَ لاَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٨) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٩) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٣٠) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣١) فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣٢)

[٢٥] {قالوا} أي قال بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام): {يا موسى إنا لن ندخلها} أي لن ندخل المدينة {أبداً ما داموا فيها} أي ما دام الجبارون في المدينة، فقد خافوا منهم ولم يثقوا بوعد الله النصر لهم {فاذهب} يا موسى {أنت وربك فقاتلا} الجبارين. ولعل مرادهم ليس ما ينافي نزاهة الله عن التجسيم، بل قصدوا أن الرب يدفع عنهم، كما قال سبحانه: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى)[٥٢]، وقال: (وَجَاءَ رَبُّكَ)[٥٣]، ولذا لم ينكر موسى (عليه السلام) مقالتهم، أو أنهم قصدوا التجسيم وأنكر موسى لكن القرآن لم يحْكِ ذلك لأنه ليس بصدد بيان الواقعة بكل مزاياها {إنا هاهنا قاعدون} ننتظر تطهير المدينة من الجبارين حتى ندخلها، أما أن نحارب الجبارين فلا طاقة لنا بذلك ولا نقدم عليه.

[٢٦] {قال} موسى (عليه السلام) معتذراً لله عن مخالفة قومه مخاطباً الله سبحانه: {رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي} هارون فأنا وحدي الذي أطيع أوامرك وكذلك أخي هو الذي يطيعني ويسمعني إذا أمرته بشيء، أما هؤلاء فليسوا كذلك، أما يوشع (عليه السلام) ومن كان على شاكلته فلعلهم لم يكونوا حاضرين إذ ذاك عند هذا الحوار {فافرق} أي افصل اللهم {بيننا} أنا وأخي {وبين القوم الفاسقين} الذين لا يطيعون الأوامر. والمراد بـ «الفرق» عدم إجراء حكم واحد عليهم في الدنيا والآخرة، فإنهما (عليهما السلام) قد باينا قومهما بالإطاعة حين عصى أولئك.

[٢٧] {قال} الله تعالى لموسى (عليه السلام): وإذ عصوني ولم يؤمنوا بوعدي {فإنها} أي الأرض المقدسة {محرمة عليهم} دخولها، أي نمنعهم عنها {أربعين سنة يتيهون} من «تاه» إذا ضلّ ولم

---

(٥٢) سورة الأنفال: ١٨.

(٥٣) سورة الفجر: ٢٣.

يهتد الطريق إلى مقصده {في الأرض} فإنهم كانوا يمشون إلى الليل فإذا أرادوا في اليوم الثاني السفر رأوا أنفسهم في مكانهم السابق {فلا تأس} أي لا تحزن {على القوم الفاسقين} وأنهم كيف تاهوا أربعين سنة ووقعوا في هذه الصعوبة.

[٢٨] إن حال اليهود في نقض العهود وارتكاب الفواحش بلا مبرر حال ابني آدم (عليه السلام) هابيل وقابيل، فإن الله أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل وكان قابيل أكبر، فبلغ قابيل فغضب فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية. فأمرهما أن يقرّبا قرباناً بوحي من الله إليه ففعلا، فتُقبّل قربان هابيل حيث أخلص وقدم خير ماله، ولم يُتقبّل قربان قابيل حيث أساء النية وقدم شر ماله. ولما رأى قابيل أن قربانه لم يُقبل حسد وعمد إلى هابيل ووضع رأسه بين حجرين فشدخه فمات، ولم يدر ماذا يصنع بجثته، فجاء غرابان فقتل أحدهما الآخر ودفن جثته، فتعلم قابيل فدفن جثة هابيل {واتل} أي أقرأ {عليهم} أي على اليهود يا رسول الله {نبأ} أي خبر {ابني آدم} هابيل الصالح وقابيل الطالح {بالحق} أي تلاوةً بالحق والصدق، فليس فيه كذب {إذ قربا قرباناً} القربان هو ما يقصد به التقرّب إلى الله تعالى {فتقبل من أحدهما} وهو هابيل {ولم يتقبل من الآخر} وهو قابيل، قالوا: وكانت علامة القبول أن تأتي نار من السماء فتأكل ما تقبل، فأكلت النار قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل {قال} قابيل الذي لم يُتقبّل قربانه لهابيل (عليه السلام): {لأقتلنك} حسداً وعناداً {قال} هابيل (عليه السلام): وما ذنبي؟ {إنما يتقبل الله من المتقين} ولعل هذا كان تنبيهاً له لأن يتقي الله حتى يحْبُوهُ بكرامته، ولم يكن تبجّحاً قطعاً.

[٢٩] ثم قال هابيل (عليه السلام) لقابيل: {لئن بسطت} أي مددت {إلي يدك لتقتلني} أي تريد قتلي {ما أنا بباسط} أي ماد {يدي إليك لأقتلك} فإن من يريد قتل إنسان ظلماً لا يجوز للمظلوم إلا المدافعة لا قتل الظالم، إلا إذا توقف الدفاع عليه. أو المراد: إن أردت قتلي ظلماً فإني لست أريد قتلك كذلك {إني أخاف الله رب العالمين} في أن أقتل أحداً ظلماً.

[٣٠] {إني أريد أن تبوء} أي ترجع أنت يا قابيل {بإثمي} أي إثم قتلي {وإثمك} أي وزرك الذي عليك من غير جهة القتل، ومعنى «الإرادة» هنا مجازي لأنه إرادة الفاعل، فإن الإنسان إذا أراد شيئاً يقول: أردت، وإذا لم يرد أن يفعله وأراد غيره فعله يقول: أردت أن يفعله غيري. فالتعبير بالإرادة هنا للمقابلة نحو قوله: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)[٥٤]، فقولنا: «أريد أن تذنب» يراد به «أني لا أذنب بل أنت تحمل الذنب» لا أنه إرادة حقيقية من المتكلم لذنب المخاطب، فلا يقال: كيف يصح أن يريد هابيل (عليه السلام) أن يأثم قابيل؟! {فتكون} أنت يا قابيل {من أصحاب النار} الملازمين لها {وذلك جزاء الظالمين} الذين يظلمون أنفسهم.

---

(٥٤) سورة المائدة: ١١٧.

[٣١] {فطوعت} أي شجعت {له} أي لقابيل {نفسه قتل أخيه} هابيل {فقتله} قالوا: قتله غيلةً {فأصبح} قابيل {من الخاسرين} الذين خسروا الدنيا والآخرة.

[٣٢] وحين قتله لم يدر كيف يصنع بجثته لأنه لم ير من قبل ذلك ميتاً {فبعث الله غراباً يبحث في الأرض} أي يطلب ويفتش ويثير التراب ليدفن غراباً آخر قد قتله، إذ جاء غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فدفنه {ليريه} أي يُري الغراب قابيل {كيف يواري} أي يستر {سوءة} أي جثة {أخيه} وإنما سمي البدن «سوءة» لأنه ساءه وكره أن يرى بدنه المقتول {قال} قابيل لما رأى فعل الغراب: {يا ويلتا} أي يا ويلي و«الويل» بمعنى الهلاك، أي: يا هلاكي احضر فهذا أوانك، نحو: ياعجباً {أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} في العلم بكيفية الخلاص من جثة الميت {فأواري} أي استر بالتراب {سوءة أخي} ثم دفنه {فأصبح من النادمين} على قتله، ولم يكن ندم توبة، وإنما ندم فعل، فلا يقال: كيف يعاقب وقد تاب؟

قال ابن عباس: لما قتل قابيل هابيل أشاك الشجر، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأمرّ الماء، واغبرّت الأرض، فقال آدم: قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل، فأنشأ يقول:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيح

تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه الصبيح

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٣) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٧)

[٣٣] ولما حكى سبحانه قصة ابني آدم وأظهر بشاعة الجريمة، ذكر جملة من الحدود على الجرائم، وابتدأ بالقتل للمناسبة، فقال تعالى: {من أجل ذلك} «أجَل» في اللغة بمعنى الجناية ـ على أحد الوجوه ـ يقال: «أجَل عليهم شراً» أي جنى. أي من ابتداء تلك الجناية. فـ «من» ابتدائية وذلك إشارة إلى قتل قابيل هابيل أي من وقت تلك الجناية قررنا الحكم الآتي وهو أن «من قتل نفساً» الآية. وبعض المفسرين يفسر «أجل» بالمعنى المتعارف، فالمعنى: من أجل الاعتداء الذي لاموجب له ولا مبرر على المسالمين المتورعين الذين لا يريدون شراً ولا مدافعة {كتبنا} أي فرضنا {على بني إسرائيل} وليس الحكم خاصاً بهم وإنما أتى بذكرهم لأنهم مورد البحث والكلام، وأنهم الذين عاكسوا أحكام الله وقتلوا أنبيائه.

{أنه من قتل نفساً} أي إنساناً قتلاً ظلماً {بغير نفس} أي: لابمقابل نفس حتى يخرج قتل القاتل نفساً من موضوع الحكم {أو فساد في الأرض} أي لم يكن المقتول مفسداً حتى يستحق بذلك أن يقتل {فكأنما قتل الناس جميعاً} أنه باعتدائه على حياة نفس واحدة بلا مبرر كان كمن اعتدى على الحياة كلها {ومن أحياها} لا إحياءً من العدم، بل إحياء بمعنى التحفظ على حياتها وإنقاذها من الهلاك {فكأنما أحيى الناس جميعاً} حيث أن تحفظه على حياة نفس واحدة يكون كتحفظه على الحياة كلها، لأن الحياة كلٌّ سارٍ في كلّ حي، فالتعدي على فرد تعدي على الكل، كما أن التحفّظ على فرد تحفّظ على الكل {ولقد جاءتهم} أي أتت إلى بني إسرائيل ـ الذين يدور الكلام حولهم ـ {رسلنا} أنبياؤنا إليهم {بالبينات} أي الأدلة الواضحة الدالة على صدق نبوتهم.

{ثم إن كثيراً منهم} أي من بني إسرائيل {بعد ذلك} أي بعد مجيء الرسل إليهم {في الأرض لمسرفون} أي يجاوزون الحد، فقد كانوا يستحلون المحارم ويسفكون الدماء.

[٣٤] وبمناسبة قتل النفس بغير حق، ذكر سبحانه حكم من يسعى في الأرض فساداً. وقد ورد في شأن نزول هذه الآية: أن قوماً من بني ضبة قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرضى فبعثهم إلى إبل الصدقة يشربون من أبوالها ويأكلون من ألبانها فلما برءوا واشتدوا قتلوا ثلاثة ممن كانوا في الإبل وساقوا الإبل، فبعث إليهم علياً (عليه السلام) فأسرهم، فنزلت هذه الآية، فاختار رسول الله القطع، فقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف[٥٥]. وفي بعض الروايات: أنها نزلت في قطاع الطرق. ولا منافاة بين الأمرين {إنما جزاء الذين يحاربون الله} أي يحاربون أوليائه فإن محاربة المتعلقين بشخص هو محاربة ذلك الشخص، كقوله تعالى: (يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ)[٥٦]، {ورسوله} أي يحاربون رسوله. وهذا أيضاً كذلك فإن محاربة أولياء الرسول محاربة للرسول {ويسعون في الأرض فساداً} بالإفساد وشهر السلاح للإخافة. ولا يخفى أنه لو لم نقل بعموم الآية لكل من صدق عليه هذا الموضوع، كان اللازم أن يُحمل على قطاع الطريق، لما ورد به الروايات، وكأنه اعتبر محاربة الناس وإخافتهم محاربة لله والرسول.

{أن يقتّلوا} تقتيلاً، وإنما عدّى بـ «التفعيل» لأن المراد منه قتلهم كلهم، وباب «التفعيل» يدلّ على التكثير كما قال تعالى: (وَغَلَّقَتِ الأبْوَابَ)[٥٧]، أي غلقت كل باب {أو يصلّبوا} بالمشنقة و«أو» هنا للتخيير، كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، والاختيار إلى الإمام في ذلك {أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف} بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، فيكون قطع كل واحدة خلاف الجهة التي يقع فيها قطع الأخرى {أو يُنفوا من الأرض} أي من بلد إلى بلد حتى يتوب ويرجع وقوله سبحانه «إنما» معناه: أن جزاءه ذلك فحسب، لا جزاء له سواه {ذلك} الذي ذكر أنه يُفعل بهم {لهم خزي في الدنيا} أي عقوبة وفضيحة {ولهم في الآخرة عذاب عظيم} في النار.

[٣٥] {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم} فإن التوبة قبل الوقوع في يد حاكم الشرع تُقبل، أما لو وقع ثم تاب فإنه لا تُقبل توبته بالنسبة إلى درء الحد، بل يجري عليه الحد {فاعلموا أن الله غفور} يغفر ذنبهم {رحيم} لا يعاقبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

[٣٦] ثم يتوجه القرآن الحكيم إلى تربية الوجدان إلى جنب تربية الخارجين عن طاعته بالسيف والعقاب {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} بإتيان أوامره واجتناب زواجره {وابتغوا} أي اطلبوا {إليه الوسيلة} السبب الذي يقرّبكم إليه سبحانه: من فعل الخيرات والأعمال الصالحة {وجاهدوا في سبيله} الخارجين عن طاعته {لعلكم تفلحون} أي رجاء أن تفلحوا، فإن الرجاء قائم في الفوز والفلاح ما دمتم تتقون وتجاهدون.

---

(٥٥) الكافي: ج٧، ٢٤٥.

(٥٦) سورة الأحزاب: ٢٤.

(٥٧) سورة يوسف: ٢٤.

[٣٧] ولا تكونوا كالذين كفروا، الذين لم يتقوا ولم يجاهدوا ولا طلبوا رضاه سبحانه والوسيلة إليه {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً} من المال والجاه {ومثله معه} بأن كان لهم ضعف ما في الأرض، وهذا من باب المثل، وإلا فالمراد كل شيء، فإن اللفظ قد يأتي للكثرة لا للتحديد نحو: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[٥٨]، {ليفتدوا به} بما في الأرض ومثله، بمعنى: أن يجعلوه فداءً لهم وبدلاً {من عذاب يوم القيامة} حتى ينجوا كما اعتادوا الفداء والخلاص في الدنيا {ما تُقبّل منهم} الفداء {ولهم عذاب أليم} مؤلم موجع.

(٥٨) سورة التوبة: ٨٠.

يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٨) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٩) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٠) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤٢)

[٣٨] {يريدون} أي يريد الذين كفروا ويتمنون {أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها} حيث أن عذابهم دائم لا انقطاع له ولا مدة {ولهم عذاب مقيم} دائم ثابت لا يزول.

[٣٩] وهنا يرجع السياق إلى بيان الحدود التي افتتحت بقصة ابني آدم {والسارق والسارقة} ذكر سبحانه كلاً على حدة حتى لا يُظن أن الحكم لا يشمل السارقة، وقدم السارق لأنه الغالب، وفي آية الزنا قدّم الزانية لامتهان بعض النساء للزنا {فاقطعوا أيديهما} الأربع أصابع من اليد اليمنى، واليد تطلق على مجموع العضو، وإلى المرفق، وإلى الزند، وعلى الأصابع فقط. ولم يقل «يداهما» لما استحسن في العربية من أنه متى اجتمع تثنيتان وهو قوله «أيديهما» مضافة إحداهما إلى الأخرى جيء بالأول بلفظ الجمع، كقوله سبحانه: (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[٥٩] ولعل الأصل أن الجوارح في الإنسان أكثر من واحد فتكون في إنسانين جمعاً، و«الفاء» إنما أتت في «الخبر» دلالة على الترتب والجزاء. وللقطع شروط مذكورة في الفقه {جزاءً بما كسبا} من السرقة {نكالاً من الله} أي عقوبةً على ما فعلاه {والله عزيز حكيم} يأخذ بعزته ويحكم بذلك بحكمته.

[٤٠] {فمن تاب من بعد ظلمه} بأن ندم عن السرقة {وأصلح} صار صالحاً {فإن الله يتوب عليه} ويغفر ذنبه {إن الله غفور رحيم} يغفر لمن تاب ويرحم عباده العصاة إذا ندموا وأقلعوا.

[٤١] إن ما ذكر من عقاب الله وغفرانه مقتضى سلطته المطلقة {ألم تعلم} أيها الإنسان {أن الله له ملك السماوات والأرض} له التصرف في الجميع كما يشاء {يعذب من يشاء} ممن استحق العقاب {ويغفر لمن يشاء} حسب حكمته البالغة {والله على كل شيء قدير} فلا يعجزه شيء.

---

(٥٩) سورة التحريم: ٥.

[٤٢] وفي سياق بيان الحدود وذكر مساوئ اليهود يتعرض القرآن الحكيم إلى قصة زنا وقعت في اليهود وراجعوا الرسول (صلى الله عليه وآله) في حكمها. فقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) ما ملخصه: «أن امرأة شريفة من خيبر زنت وقد كان حكم زنى المحصن في التوراة الرجم، لكنهم راجعوا النبي (صلى الله عليه وآله) رجاءَ أن يخفّف عنهم ويأخذوا بذلك، فأفتاهم النبي (صلى الله عليه وآله) بالرجم، وذكر أنه حكم التوراة أيضاً، لكن جماعة من علمائهم أنكروا ذلك فجعل الرسول (صلى الله عليه وآله) «ابن صوريا» أعلمهم حَكَماً فاعترف هو أن الحكم في التوراة هو الرجم وأنهم حرّفوا حكم التوراة فوضعوا مكانه أن يجلد أربعين جلدة ثم يسوّد وجهه ويُطاف على حمار مقلوباً، تشهيراً به!»[٦٠].

وفي بعض التفاسير: أنه كان بين بني النضير وقريضة معاهدة في باب القتل على خلاف حكم التوراة، فقد كان حكم التوراة القتل للقاتل، ولكن كانت معاهدة بين القبيلتين أنه إن قتل بنو قريضة من بني النضير قتل القاتل، وإن قتل بنو النضير من بني قريضة أخذت الدية، فأراد بنو قريضة المراجعة إلى النبي في الحكم ليحكم لهم بحكم التوراة وقال «ابن أبي» المنافق الصديق لهم: إن حَكَم محمد بما ترضون. يريد خلاف حكم التوراة. فارضوا به وإلا فلا تقبلوه[٦١].

أقول: ومن المحتمل كون الآية إشارة إلى القصتين، وعلى أي حال فالله سبحانه يسلّي الرسول (صلى الله عليه وآله) في مخالفة المنافقين واليهود له فقال سبحانه: {يا أيها الرسول لا يحزنك} أي لا يوجب حزنك وغمك {الذين يسارعون في الكفر} أي يُسرعون للدخول فيه بالقيام على خلافك وعدم قبول حكمك {من} المنافقين {الذين قالوا آمنا بأفواههم} جمع «فوه» بمعنى «الفم» أي أن إيمانهم لفظي وبمجرد الشهادتين، لا عن قلب وعقيدة، والمقصود ابن أُبي كما تقدم {ولم تؤمن قلوبهم} بل بقيت على كفرها وضلالها.

{ومن الذين هادوا} أي اليهود والمراد بمسارعة اليهود في الكفر تركهم لأحكام التوراة وتمسكهم بالأحكام المخالفة لما أنزل الله فإنه كفر في مرتبة اليهودية وإن كان اليهود كفاراً من أصلهم وبمقتضى بقائهم على اليهودية {سماعون للكذب} أي هؤلاء اليهود. أو مع المنافقين. مبالغون في سماع الكذب وقبول ما يفتريه أحبارُهم وشياطينهم {سماعون لقوم آخرين لم يأتوك} يا رسول الله، إنهم خاضعون لقول غيرك ممن لم يأتوك لتحكيمك في قصة الزنا أو في قصة القتل {يحرفون الكلم} جمع «كلمة» أي كلام الله تعالى {من بعد مواضعه} أي من بعد أن وضعه الله سبحانه في مواضعه، كما حرفوا حكم زنا المحصن الذي هو الرجم إلى الجلد، وكما حرفوا حكم القتل قصاصاً إلى الدية {يقولون} أي يقول المنافقون واليهود بعضهم لبعض {إن أوتيتم} أي أعطاكم الرسول (صلى الله عليه وآله) {هذا} وهو

---

(٦٠) راجع فقه القرآن: ج٢، ص٣٧٥.

(٦١) راجع مجمع البيان: ج٣، ص٣٣٦.

الجلد في الزنا والدية في القتل {فخذوه} واقبلوه {وإن لم تؤتوه} هذا الحكم، بل حكم الرسول (صلى الله عليه وآله) بما في التوراة من رجم الزاني وقتل القاتل {فاحذروا} عن قبول قوله.

ثم توجه الخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) تسلية له عن نفاق المنافقين وتحريف اليهود قال سبحانه: {ومن يرد الله فتنته} أي امتحانه، فقد أراد الله سبحانه اختبار اليهود والمنافقين في هذه القضية ليتبيّن عنادهم وغيّهم وأنهم لا يرجعون إلى حكم الله، ويظهر كذبهم في قولهم أنهم متدينون {فلن تملك له من الله شيئاً} أي لن تستطيع يا رسول الله أن تدفع عنه من أمر الله شيئاً، بل إرادته نافذة وحكمه ماضٍ {أولئك} المنافقون واليهود {الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم} من الكفر، فلم يلطف بهم اللطف الخاص .كما يلطف بسائر المؤمنين . حتى تتطهر قلوبهم من أدران الكفر، إن الله سبحانه بيّن لهم الدلائل ونصب لهم الحجج لكنهم أبوا من الرضوخ ولذا قطع الله تعالى لطفه عنهم.

{لهم} أي للمنافقين واليهود {في الدنيا خزي} فضيحة وذلة، أما المنافقون فلظهور نفاقهم عند المؤمنين مما يوجب التنفّر منهم، وأما اليهود فبضرب الذلة عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس {ولهم في الآخرة عذاب عظيم} إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، واليهود معلوم حالهم هناك.

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٣) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٤) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٥) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٦)

[٤٣] {سماعون للكذب} تكرار لتصوير واقعهم البشع فإن الإنسان إذا أراد أن يؤكد شيئاً قاله أكثر من مرة حتى يقع في نفس السامع موقع القبول {أكّالون للسحت} جمع «أكال» مبالغة لـ«آكل» أي كثيرو الأكل للرشوة وسائر أقسام الحرام، {فإن جاءوك} يا رسول الله ليجعلوك حكَماً فيما بينهم في قصة الزنا والقتل {فاحكم بينهم} بحكم الله سبحانه {أو أعرض عنهم} وقد جاز الإعراض لأنهم كانوا يعلمون بالحكم حيث كان مُثبتاً في التوراة فلم يكن الإعراض يسبب سحق حكم الله سبحانه وجهالة المجتمع به {وإن تعرض عنهم} فلم تحكم بينهم {فلن يضروك شيئاً} إذ النفع والضرر بيد الله سبحانه لا بيد غيره {وإن حكمت} يا رسول الله {فاحكم بينهم بالقسط} أي بالعدل الذي هو إجراء حكم الله من رجم الزاني المحصن وقتل القاتل شخصاً ما {إن الله يحب المقسطين} أي العادلين الذين يعدلون في حكمهم.

[٤٤] إن أمر هؤلاء اليهود عجيب فإنهم لا يعترفون بك رسولاً ومع ذلك يحكمونك في قضيتهم وذلك ليس إلا أنهم يريدون فراراً من حكم التوراة إلى حكم يطابق أهواءهم {وكيف يحكمونك} أي يجعلونك حكماً يا رسول الله {وعندهم التوراة} أي والحال أن لديهم التوراة التي يعترفون بها كتاباً {فيها حكم الله} بالنسبة إلى الزنا والقتل {ثم يتولون من بعد ذلك} التحكيم، أو من بعد حكمك فلا يقبلون حكمك أيضاً {وما أولئك} اليهود والمنافقون الذين حكّموك، ثم تولوا {بالمؤمنين} بالتوراة أو بحكمك، وإنما يظهرون الإيمان كذباً واختلاقاً.

[٤٥] ثم بيّن سبحانه أن التوراة التي أُعرض عن حكمها في قصة الزنا والقتل كتاب سماوي يجب العمل به، ومن المعلوم أنه ليس المراد بذلك التوراة المحرّفة التي بأيدي اليهود اليوم، فقد كان قسم من التوراة محفوظاً عن التحريف إلى زمان النبي (صلى الله عليه وآله)، كما أن المعلوم أن المراد كون التوراة

في وقتها هدىً ونور، أما إذا جاء أهدى منها وأكثر نوراً ونسخ قسماً من أحكامها لم يُعمل بالمنسوخ منها، وذلك كما لو قلنا: أن القرآن هدى ونور، يراد المجموع من حيث المجموع، لا أنه يعمل به حتى بالنسبة إلى الآيات المنسوخ حكمها على تقدير تسليم النسخ في القرآن.

{إنا أنزلنا التوراة فيها هدى} يهتدي به الناس إلى سبل الحق {ونور} ينير دروب الحياة المظلمة . ولعل العطف للبيان . {يحكم بها} أي بالتوراة {النبيون الذين أسلموا} لله وأذعنوا لحكمه، ومن جملة أولئك الأنبياء الرسول (صلى الله عليه وآله) الذي حكم على طبقها في قصة الزاني والقاتل {للذين هادوا} أي أن الحكم إنما كان للذين هادوا أما غيرهم من النصارى والمسلمين فإنما يُحكم بينهم حسب معتقدهم. وقد ثبت في الشريعة جواز الحكم لكل أهل كتاب بكتابهم. قال أمير المؤمنين (عليه االسلام): «والله لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم»[٦٢]، كما ثبت قولهم (عليهم السلام): «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»[٦٣].

لكن من المعلوم أنه ليس كل الأحكام كذلك، بل من الأحكام ما لا يجوز أن يحكم بها، والقاعدة الكلية: أنه كل ما أجاز الإسلام أن يحكم به الحاكم على طبق دياناتهم جاز ذلك، وكل ما لم يجز كان اللازم الرجوع إلى حكم الإسلام.

{و} يحكم بالتوراة {الربانيون} وهم المتدينون فإن «رباني» منسوب إلى «الرب» من غير قياس {والأحبار} جمع «حِبر» بالكسر و«حَبر» بالفتح، وهو العالم، أي أن الأنبياء والأتقياء والعلماء يحكمون بالتوراة، وإنما يحكم هؤلاء بالتوراة {بـ} سبب {ما استحفظوا} أي استدعوا {من كتاب الله} أي حيث أن الله سبحانه جعلهم حافظين للكتاب وائتمنهم عليه في أن يحكمون بموجبه {وكانوا عليه شهداء} أي أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا شهداء على أن ما في الكتاب حق وصدق. والحاصل أن هؤلاء يحكمون بالتوراة لأنه وديعة عندهم وهم يشهدون بصدقه.

وحيث بيّن سبحانه أن التوراة يحكم بها أولئك الصفوة وأنهم محل وديعة والشهداء على صحته، بيّن أن مقتضى ذلك أن يكون الإنسان المتصف بهذه الصفات شجاعاً في إظهار أحكامه فلا يخون ولا يكتم ولا يخشى الناس {فلا تخشوا الناس} في إظهار أحكام التوراة ومنها مسألة رجم الزاني وقتل القاتل {واخشون} في ترك أمري وتحريف حكمي فإن النفع والضرر بيدي {ولا تشتروا بـ} مقابل {آياتي} وأحكامي {ثمناً قليلاً} حيث أنكم إذا كتمتم الأحكام لأجل الرشوة والرئاسة كنتم كمن يعطي السلعة ليأخذ المال، وكل شيء من المال والرئاسة في مقابل حكم الله ثمن قليل لأنه يزول وينتقل وتبقى تبعة

---

(٦٢) بحار الأنوار: ج٣٠، ص٦٧٢.

(٦٣) تهذيب الأحكام: ج٩، ص٣٢٢.

التحريف والكتمان والحكم بخلاف ما أنزل الله {ومن لم يحكم بما أنزل الله} لعلّ وجه الإتيان بالنفي دون أن يقول «ومن حكم بغير ما أنزل الله» ليشمل الحاكم بالخلاف والساكت الكاتم، فإن من يعلم حكم الله ويسكت ويكتم يكون مصداقاً لـ «من لم يحكم بما أنزل الله» {فأولئك هم الكافرون} ومن المعلوم أن عدم الحكم كفر عملي لاكفر اعتقادي، إلا إذا رجع إلى الجحود لأصل من أصول الدين، وإنكار ضروري من ضروريات الإسلام، ويسمى كافراً لأنه ستر الحق، فإن الكفر لغة بمعنى الستر.

[٤٦] {وكتبنا عليهم} أي على بني إسرائيل {فيها} أي في التوراة {أن النفس} تقتل {بـ} مقابل {النفس} فإذا قَتل الإنسان شخصاً عمداً، قُتل القاتل في قبال ذاك، ولعل هذه الآية تؤيد كون الآيات السابقة كانت بشأن قصة بني النضير وبني قريضة ـ كما تقدم ـ {والعين} مفقوءة {بالعين} أو معمية بها {والأنف} مجدوعة {بالأنف} أما ذهاب حاسة الشم فلعله خلاف الظاهر وإن كان الحكم كذلك إذا أمكن {والأذن} مصلومة {بالأذن} وفي ذهاب السمع ما تقدم {والسن} مقلوعة {بالسن} ولذلك كله شرائط مذكورة في كتب الفقه(٦٤).

{والجروح} فيها {قصاص} فمن جَرح إنساناً جُرح كما جَرح، ويدخل فيه الشفة والذَّكَر والبيضتان واليدان والرجلان وسائر أقسام الجروح. و«القصاص» مشتق من «قص» بمعنى اتّباع الأثر، كأن المجروح يتبع أثر الجارح فيجرحه {فمن تصدق به} أي بالقصاص بأن عفا عنه وأسقطه وتنازل عن حقه {فهو} أي التصدّق {كفارة} أي حط عن الذنوب {له} أي للمتصدق المجروح. قال الإمام الصادق (عليه السلام): «يُكّفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا من جراح أو غيره»(٦٥).

{ومن لم يحكم بما أنزل الله} تقدم الكلام فيه {فأولئك هم الظالمون} الظلم هو ظلم النفس وظلم الغير، وقد اختلف التعبير هنا عن الآية السابقة «الكافرون» والآية الآتية «الفاسقون» لإفادة أن من لم يحكم بما أنزل الله يتصف بصفات ثلاث لأنه قد ستر حكم الله وكتمه فهو «كافر» إذ الكافر بمعنى الساتر، كما تقول: الزارع كافر، لأنه يستر الحبة تحت الأرض، ولأن الكافر قد ظلم نفسه لأنه عصى الله سبحانه في كتمان حكمه وظلم المترافعين والمجتمع لأن حكم الله هو الحق وسواه انحراف وزيغ فهو «ظالم» وأنه قد خرج بحكمه ذاك أو سكرته عن الحق عن الجادة المستقيمة فهو «فاسق» إذ الفسق بمعنى الخروج والمروق.

---

(٦٤) موسوعة الفقه: ج٨٩.

(٦٥) الكافي: ج٧، ص٣٥٨.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٧) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٨) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٩) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٥٠) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥١)

[٤٧] ولما ذكر سبحانه اليهود، اتجه الكلام إلى ذكر النصارى مبيّناً أن الأنبياء من سلسلة واحدة وأن كتبهم كلها هدى ونور، وأن بعضها يصدّق بعضاً {وقفينا} من «التقفية» أصله «القفو» بمعنى اتباع الأثر يقال: قفيته بكذا أي اتبعته به {على آثارهم} أي آثار الأنبياء حيث قال سبحانه: «يحكم بها النبيون» {بعيسى ابن مريم} أي أتبعنا على آثار النبيين عيسى ابن مريم فقد بعثناه رسولاً من بعدهم {مصدقاً} أي في حال كون المسيح (عليه السلام) يصدّق {لما بين يديه} أي ما تقدمه {من التوراة} بيان «ما» ويقال للسابق الزماني: «بين يديه» تشبيهاً بالسابق المكاني الذي هو «بين يدي الإنسان» أي في قباله {وآتيناه} أي أعطينا عيسى (عليه السلام) {الإنجيل} أي أنزلناه عليه {فيه هدى ونور} تقدم معنى ذلك {ومصدقاً} أي في حال كون الإنجيل مصدقاً {لما بين يديه من التوراة} فقد كان عيسى (عليه السلام) يصدق التوراة، وكتابه الإنجيل يصدقها أيضاً {وهدى} أي أن الإنجيل كتاب هداية وإرشاد {وموعظة} أي واعظاً {للمتقين} الذين يتقون الآثام، فهو يحذّرهم من العقاب ويرشدهم ويحرضهم على الثواب. وقد كرر التصديق والهداية، تأكيداً وتركيزاً.

[٤٨] {وليحكم} أي يجب أن يحكم {أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه} من الأحكام والدلالات التي منها التبشير بالنبي (صلى الله عليه وآله) ووجوب اتّباعه {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} أي أن الديانات كلها من عند الله، وأن الأنبياء كلهم سفراء له وحده، وأن الكتب كلها منزلة من عند الله، فمن الضروري أن يحكم الأنبياء بالكتب المنزلة ويتبع الناس الأنبياء والكتب، أما ما حُرّف منها فليس من الله، كما أن ما نُسخ منها فاللازم تركه واتباع الناسخ عوضه.

[٤٩] ولما أتم الكلام حول التوراة والإنجيل ـ وهما الكتابان المتداولان في أيدي الناس ـ ذكر سبحانه القرآن الحكيم {وأنزلنا إليك} يا رسول الله {الكتاب} أي القرآن الحكيم {بالحق} كتاباً بالحق لأنه ليس فيه باطل، أو إنزالاً بالحق، حيث كان المنزِل والمنزَل عليه لهما الحق في ذلك، فالمنزِل إلهٌ يحق له التنزيل والتشريع، والمنزَل إليه رسول يحق له الأخذ والقبول {مصدقاً لما بين يديه من الكتاب} اللام للجنس أي أن القرآن يصدق ما سبقه من كتب الأنبياء {ومهيمناً عليه} أي أن القرآن مهيمن على الكتاب المتقدم، ومعنى الهيمنة السيطرة، فإن القرآن الحكيم كشاهد مسيطر يدل على مواقع الخطأ والصواب من الكتب السابقة، كل ما حرفوه دل عليه وكل ما زادوا أو أنقصوا منهما أشار إليه، وذلك لأن القرآن يبيّن كليات العقائد وأصول العبادة والمعاملة والأخلاق، وفي الكتب السابقة مواقع كثيرة قد زاغت عن الحق بأيادي أثيمة، يدل عليها القرآن ويشير إليها {فاحكم} يا رسول الله {بينهم} أي بين أهل الكتب السالفة، أو بين اليهود {بما أنزل الله} من الأحكام، ومنها في رجم زنا المحصن، وقتل القاتل {ولا تتبع أهواءهم} أي ما يشتهون من خلاف حكم الله، فقد أحبوا أن يحكم الرسول بخلاف الحق، فيفتي بجلد المحصن الزاني، ودية القاتل {عما جاءك من الحق} أي لا تزغ عما جاءك، فإن معنى اتباع أهوائهم: الزيغ عن الحق. وكثيراً ما يشبه فعلٌ معنى فعل آخر فيتعدى الفعل الأول بما يتعدى به الفعل الثاني، كما ذكره «المغني».

ولما كان المقام يوهم اتحاد الديانات من جميع الحيثيات حيث أن الآيات السابقة أفادت تصديق كل نبي وكتاب لما سبقه، فأية حاجة إذاً لإيمان اليهود والنصارى بالنبي والقرآن، تعرّض السياق إلى اختلاف الشرائع والمناهج في الخصوصيات والمزايا وإن اتحد الجميع في الأصول والجوهر {لكل جعلنا منكم} أي لكل أمة منكم أيها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً جعلنا {شرعةً} أي طريقةً {ومنهاجاً} «الشرعة» أول الطريق، و«المنهاج» الطريق المستقيم الذي يلزمه الإنسان في حياته ليسير عليه، وكأن وجه تقديم «جعلنا» على «منكم» أن المقام مقام الجعل، لا مقام ذكر الأمم. وقد تقرر في علم البلاغة أن المقدم من الألفاظ هو الذي سيق له الكلام، يقال: «زيد جاء» إذا كان المقام مقام ذكر زيد وأعماله، ويقال: «جاء زيد» إذا كان المقام مقام ذكر الجائين. {ولو شاء الله لجعلكم} أيها الأمم الثلاث {أمةً واحدة} بأن لا ينزل عليكم إلا كتاباً واحداً ولا يرسل إلا رسولاً واحداً {ولكن} جعلكم على شرائع مختلفة {ليبلوكم} أي يمتحنكم {في ما آتاكم} أي فيما فرضه عليكم وأعطاكم وشرع لكم حتى يتبين مَن يقبل الرسول اللاحق ومَن لا يقبل، ومن يعمل بأوامره عملاً تاماً ومن لا يعمل {فاستبقوا} أيتها الأمم {الخيرات} أي ليبادر بعضكم بعضاً في تحصيل الخيرات والعمل بما أمر الله {إلى الله مرجعكم} ومصيركم {جميعاً} أيتها الأمم. وإنما سمي «مرجعاً» تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، وإلا فلا مكان لله سبحانه حتى يكون مبدءاً ومرجعاً {فينبئكم} أي يخبركم {بما كنتم فيه تختلفون} من أمور

دينكم. وفي الإجمال ما لا يخفى من التهويل ـ كما يقول الملك لبعض رعيته: أُعلمك بما صنعت ـ ثم يجازيكم حسب أعمالكم وعقائدكم.

[٥٠] ثم كرر سبحانه وجوب الحكم بين اليهود بما أنزل الله، وقد كرر ذلك لأنهم حكّموه (صلى الله عليه وآله) في قصتين قصة الزنا وقصة القتل {وأن احكم} عطف على قوله في الآية السابقة «فاحكم» أو عطف على «الكتاب» أي أنزلنا إليك الكتاب وأنزلنا إليك «أن احكم» {بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم} وما يشتهون من خلاف الحكم {واحذرهم} يا رسول الله، أي احذر اليهود {أن يفتنوك} أي يضلوك {عن بعض ما أنزل الله إليك} بأن تفتي بغير ما أنزل الله. فقد ورد أن اليهود عرضوا على الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام خاصة، منها حكم الرجم في الزاني المحصن، وهذا التحذير للرسول ليس معناه أنه كان يعمل على الخلاف، وإنما هو لبيان الحكم، كما يخاطب بقوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلاَةَ)[٦٦]، ونحوه {فإن تولوا} أي أعرضوا عن الحق ولم يقبلوا قولك وحكمك {فاعلم} يا رسول الله {أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} فإن التمرد على الله ورسوله يوجب نكال الله سبحانه، وتمردهم عن حكمك موجب لأن يسخط الله عليهم فيأخذهم ببعض ما سلف من ذنوبهم، أو نفس التمرد نكال سببه بعض ذنوبهم السابقة.

روي أن رجلاً قال للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : إني حُرِمت صلاة الليل؟ قال الإمام: «أنت رجل قيدتك ذنوبك»[٦٧].

{وإن كثيراً من الناس لفاسقون} أي الخارجون عن طاعة الله، وهذا تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) أن لا يغتم لعدم نفوذ حكمه.

[٥١] {أفحكم الجاهلية يبغون} استفهام إنكاري، أي هل يبغي هؤلاء اليهود حكم الجاهلية، والمراد بها جاهلية البشر التي لا يرجع حكمهم فيها إلى قانون ثابت بل تحكم الأهواء والقبليات والعصبيات وما أشبه، فكل من يبتغي حكماً غير حكم الله فإنه يبتغي حكم الجاهلية، حتى إذا كان الحكم أكثرية «برلمانية» {ومن أحسن من الله حكماً} أي ليس هناك حكماً أحسن من حكم الله {لقوم يوقنون} بالله واليوم الآخر، فإنهم يعلمون أن حكم الله أحسن الأحكام لأنه خال من جميع الانحرافات التي تصيب حكم البشر.

---

(٦٦) سورة هود: ١١٥.

(٦٧) عوالي اللآلي: ج٢، ص٥١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٢) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٣) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٥) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٦) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٨)

[٥٢] وبعدما بيّن سبحانه انحراف اليهود وضلالهم، ذكر سبحانه هنا عدم جواز اتخاذ اليهود أو النصارى أولياء. وقيل في سبب النزول: أنه لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً، وقال آخر: أنا ألحق بفلان النصراني فآخذ منه أماناً، فنزلت الآية {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء} فلا تصادقوهم مصادقة الولي لوليه والحميم لحميمه {بعضهم أولياء بعض} فإن بعضهم ينصر بعضاً ويُعينه عليكم، وقد ظهر انطباق كلامه سبحانه على الخارج طيلة أربعة عشر قرناً فإن اليهود والنصارى لم يزالا ينصر أحدهما الآخر على المسلمين على ما بينهما من العداء والبغضاء {ومن يتولّهم منكم} أي يصادقهم وينتصر بهم ويجعلهم أولياء له { فإنه منهم} فإنه كافر عملاً، من أهل النار، وهو خطر على المسلمين، فالذين تولّوا الكفار كانوا من أخطر الناس على المسلمين، وكانوا في زمرة الكفار ينصرونهم وينتصرون بهم {إن الله لا يهدي القوم الظالمين} الذين يظلمون أنفسهم بعدما علموا وعرفوا، فإنه سبحانه لا يُلطف بهم ألطافه الخفية.

[٥٣] وبعد هذا القرار الجازم، الذي دل عليه منطق التاريخ السابق على الإسلام، حيث أن كل موالٍ لا بد وأن يكون هواه مع من يوالي، لا مع مجتمعه، والذي قد نُهي عنه صريحاً {فترى} يا رسول الله {الذين في قلوبهم مرض} أي شك ونفاق. قال ابن عباس: إن المراد بذلك عبد الله بن أُبي، أن عبادة بن الصامت الخزرجي أتى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله إن لي أولياء

من اليهود، كثير عددهم، قوية أنفسهم، شديدة شوكتهم، وأنا أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله بن أُبي: لكن لا أبرأ من ولاية اليهود لأني أخاف الدوائر ولا بد لي منهم.

ثم أنه شُبّه النفاق بالمرض لأن كليهما موجب لانحراف الإنسان، فالمرض يوجب انحراف مزاجه، والنفاق يوجب انحراف سلوكه المنبعث من انحراف روحه {يسارعون فيهم} أي في تولي أهل الكتاب واتخاذهم أولياء، ولعل الإتيان بلفظة «يسارعون» لإفادة أنهم يوالونهم قبل ظهور علائم الاحتياج إليهم «من هزيمة المسلمين» فإنهم يحتاطون باتخاذهم أولياء لئلا يأتي يوم يحتاجون إليهم، وذلك أسوأ حالاً ممن يوالونهم إذا ظهرت علامة هزيمة في المسلمين {يقولون} أي قائلين لتبرير موقفهم {نخشى أن تصيبنا دائرة} أي دوران الفلك الموجب لغلبة الكفار على المسلمين فإنا نتخذهم من الآن أولياء لنكون في أمان إذا دارت الدائرة {فعسى الله} أي لعل الله {أن يأتي بالفتح} للمسلمين بأن يفتحوا بلاد الكفار ويكون الغلب لهم على الكفار {أو أمر من عنده} غير الفتح من إعزاز المسلمين وتكثير عددهم وجلاء الكفار {فيصبحوا} أي يصبح هؤلاء المنافقون الذين والوا الكفار خوف غلبتهم ودوران الدائرة على المسلمين {على ما أسروا في أنفسهم} من موالاة اليهود وتمني الغلبة لهم. ولعل ذكر «أسروا» مع أنهم أعلنوا عن ولائهم خوف الدائرة، لإفادة أنهم كانوا قد أسروا أشياء كثيرة في أنفسهم، كما هو شأن النفاق والمنافقين {نادمين} وليس ندمهم من جهة الحق، بل من جهة أنهم خسروا الطرفين، طرف المسلمين لأنهم عرفوا نفاقهم، وطرف الكفار لأنهم هُزموا.

[٥٤] {و} إذ قسم الله الفتح للمؤمنين، أو أتاهم بأمرٍ من عنده {يقول الذين آمنوا} إيماناً صادقاً، يقولون متعجبين من نفاق المنافقين واجترائهم على الله بالأيمان الكاذبة: {أهؤلاء الذين أقسموا بالله} أي: هل هؤلاء المنافقون الذين انكشفت حقائقُهم هم الذين حلفوا بالله {جهد أيمانهم} أي جهدوا جهد أيمانهم، بمعنى: حلفوا بأغلظ الأيمان {إنهم لمعكم} أي مع المؤمنين في صدق الإيمان والمناصرة؟ كيف حلفوا بتلك الأيمان المغلظة، وقد ظهر نفاقهم خلال المعركة الحاسمة الموجبة لترجيح كفة المسلمين؟ فإن النفاق لا يظهر جيداً إلا في المعارك والمخاوف. وهناك حيث عرف المسلمون حقيقتهم تعجبوا من إيمانهم المزيف، وأيمانهم المغلظة الكاذبة التي أرادوا بها دعم إيمانهم وإدخال أنفسهم في زمرة المؤمنين {حبطت أعمالهم} جملة مستأنفة، أي أن المنافقين ضاعت أعمالهم الإيمانية بسبب النفاق، أو: أنهم ضاعت مساعيهم في مصانعة الطرفين بسبب انهزام الكفار فلا ظهر لهم، وكشف باطنهم للمسلمين فيتجنبون عنهم {فأصبحوا خاسرين} دنياً وآخرة.

[٥٥] ثم بعدما بيّن مضرّة النفاق، توجه السياق إلى المؤمنين مبيّناً لهم أنهم إن ارتدوا فلا يظنوا أن ذلك يضر دين الله سبحانه فقد وكّل الله بدينه في كل دور أناساً يقومون بشرائط الإيمان، فالمرتد إنما يضر نفسه لا أنه يضر دين الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه} ارتداداً إلى الكفر، أو إلى النفاق، فإن انقلاب الباطن عن الإسلام هو نوع من الارتداد أيضاً {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم

ويحبونه} فهو ذو صلة بهم وهم ذووا صلة به سبحانه. ولعل الإتيان بكلمة «سوف» لئلاّ يظنون أن في تأخير الأمر انقطاعاً وانفصاماً للإيمان، بل قد يتأخر مجيء الصلحاء بعد ارتداد قسم من الناس عن الإيمان {أذلة على المؤمنين} أذلة من «الذِّل» بكسر الذال: ضد الصعوبة، وقد يكون من «الذُّل» بضم الذال: ضد العزة {أعزة على الكافرين} أي يكونون ليّنين على المؤمنين، غلاظ شداد على الكافرين. وإنما كان ذلك مدحاً لأن اللّين مع الكافر موجب لبقاء الكفر، بخلاف إظهار الشدة الذي يوجب حصر الكفر على نفسه وانكماشه، وعدم تعديه إلى المؤمنين الضعاف، كما قال سبحانه في آية أخرى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[٦٨]، {يجاهدون في سبيل الله} لإعلاء كلمته {ولا يخافون لومة لائم} فإن الجهاد يلازم لوم اللائمين من المؤمنين ومن الكافرين، أما «من الكافرين» فواضح، وأما «من المؤمنين» فلأن الآراء غالباً ما تختلف بسبب لوم بعضهم لبعض كما هو المشاهد المحسوس، وكثيراً من الناس يمنعه الجهاد والإقدام لومُ اللائمين لا صعوبة الجهاد.

وقد نزلت هذه الآية في علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وأصحابه الأكرمين، وإن كانت عامة بحسب اللفظ، كما هو شأن آيات القرآن غالباً.

ولعل وجه قوله: «يأتي» مع أن الإمام كان حاضراً وقت النزول، اعتبار الوصف أي قوله «يجاهدون». تقول: «سوف آتي بشخص يفعل كذا» تريد أن الفعل «سوف» يأتي لا الشخص.

{ذلك} المذكور في أوصاف القوم من محبة الله لهم ومحبتهم لله ولينهم مع المؤمنين وشدتهم على الكافرين وجهادهم بدون خوف اللوم {فضل الله} حيث تفضل عليهم بهذه الصفات وهداهم إلى الحق {يؤتيه} أي يعطي هذا الفضل {من يشاء} ممن كان قابلاً وأهلاً {والله واسع} فضله فلا يخاف نفاده إن أعطى أحداً {عليم} بموضع فضله وجوده.

[٥٦] ولما ذكر سبحانه أنه لا يجوز أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، بيّن ولي المؤمنين وأن اللازم أن يتخذوا الله ورسوله ومن نصبه الله ولياً. وقد أجمع المفسرون بأن هذه الآية نزلت في علي أمير المؤمنين (عليه السلام)[٦٩] وقد يقال أن الأئمة الأحد عشر (عليهم السلام) ليسوا بمشمولين للآية، لدلالة «إنما» على الحصر؟ والجواب من وجهين:

الأول: إن الآية حصرت الأمر في وقت النزول، وكانت ولايتهم (عليهم السلام) بعد ذلك.

والثاني: وهو الأصح أن ولاية الأئمة من ولاية علي (عليه السلام)، كما لو قال: والي بلدكم فلان، فإن من عينه الوالي للأمور كان امتداداً لولاية فلان.

---

(٦٨) سورة الفتح: ٣٠.

(٦٩) مجمع البيان: ج٣، ص٣٦١ وتفسير العياشي: ج١، ص٣٢٧.

{إنما وليكم الله} فالله له الولاية المطلقة والسلطنة الكاملة من جميع الجهات عليكم {ورسوله} محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) {والذين آمنوا} المتصفون بكونهم {الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة} أي الصدقة {وهم راكعون}.

وقد روت العامة والخاصة أن هذه الآيات نزلت في علي أمير المؤمنين (عليه السلام) لما تصدّق بخاتمه وهو في الركوع. وفي بعض الأخبار أنه كان تصدق قبل ذلك أيضاً في صلاة أخرى بحلّة قيمتها ألف دينار أرسلها النجاشي إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فأهداها إلى علي (عليه السلام)(٧٠).

[٥٧] ثم ذكر سبحانه أنه في تولي هؤلاء النجاح والغلبة، فمن ظن أن في تولي غيرهم النجاح فقد اشتبه، ودل التاريخ أنه كلما التزم المسلمون بهؤلاء نجحوا وتقدموا، وكلما تولوا غيرهم خسروا وتأخروا {ومن يتولّ الله} أي يتخذه الله سبحانه ولياً يأتمر بأوامره وينتهي عن زواجره {ورسوله} يقتدي به في أعماله وأقواله {والذين آمنوا} علي والأئمة من ولده (عليهم السلام) ـ حسب النزول ـ أو كل مؤمن حسب العموم، في مقابل اتخاذ الكفار أولياء {فإن حزب الله} جنده وجماعته {هم الغالبون} على من سواهم من الأحزاب والجنود، وفي قطع قوله: «فإن حزب الله» عن الجملة السابقة، إذ لم يقل «فإنهم الغالبون»، إفادة أن المتولي يُعدّ من حزب الله وجماعته، فليس الأمر من ناحية العبد فقط، بل من ناحية الله أيضاً.

[٥٨] قد نُهي المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ثم الآن يأتي السياق لينهى عن اتخاذ أي كافر أو كتابي ـ ولو لم يكن يهودياً أو نصرانياً ـ ولياً. وقد ورد في سبب النزول أن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم كان رجال من المسلمين يوادّونهما فنزلت هذه الآية، ولو كان الأمر كذلك فالمراد، بمن ذُكر في الآية أعم من المنافق {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً} أي سخريةً وتلاعباً، وذلك بأن أظهروا الإسلام باللسان وأبطنوا الكفر بالجنان، أو المراد جعله سخرية ولعب يستهزئون به {من الذين أوتوا الكتاب} أي أنزل عليهم الكتاب {من قبلكم} وهم أهل الأديان السابقة على الإسلام {و} من {الكفار} المراد بهم الأعم من المنافقين ـ كما سبق ـ ولا يخفى أن الكفار أعم من أهل الكتاب، لكن إذا ذكروا في كلام كان المراد بالكفار غيرهم {أولياء} تتولونهم كاتخاذ المؤمنين لله ورسوله أولياء {واتقوا الله} فلا تخالفوه {إن كنتم مؤمنين} بالله وبما أمر به.

---

(٧٠) الكافي: ج١، ص٢٨٨.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (٥٩) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٦٠) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦١) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦٢) وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٣) لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٤) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٥)

[٥٩] {وإذا ناديتم} أيها المؤمنون {إلى الصلاة} إي دعوتم إليها {اتخذوها} أي اتخذوا الصلاة {هزواً ولعباً} مهزلة وتلاعباً فيتضاحكون ويتغامزون بينهم. كما هي عادة منافقي اليوم أيضاً. {ذلك بأنهم} أي ذلك الاستهزاء بالصلاة بسبب أن الكفار {قوم لايعقلون} منافع الصلاة وأنها موجبة للنجاة من النار.

[٦٠] وجاء قوم من اليهود يسألون الرسول (صلى الله عليه وآله) عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.. إلى أن ذكر عيسى (عليه السلام) فلما سمعوا ذلك منه جحدوا نبوته وقالوا: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شرّاً من دينكم، فنزلت {قل} يا رسول الله لأهل الكتاب: {يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا} أي تسخطون علينا {إلا أن آمنا بالله} إيماناً لا يشوبه كفر. كإيمانكم. {وما أنزل إلينا} يعني القرآن الحكيم {وما أنزل من قبل} على جميع الأنبياء {وأن أكثركم فاسقون} فإن فسقكم. أي خروجكم. عن دين الله هو سبب نقمتكم علينا. وهذا كقولهم: «هل تنقم مني إلا أني عفيف وأنك فاجر»، أو: «إلا أني كريم وأنت بخيل»، فهو من باب الازدواج يحسن في الكلام لتعميم المقابلة، فهو عطف على قوله: «أن آمنا».

[٦١] {قل} يا رسول الله لهؤلاء المستهزئين: {هل أنبئكم} أي أخبركم {بشر من ذلك} أي إن كان إيماناً شراً عندكم فأنا أخبركم بشر من ذلك {مثوبة عند الله} أي جزاءً من عنده سبحانه، وسمّي «مثوبة» استهزاءً بهم، وإنما سمّي ما عند المؤمنين شراً. وإن لم يكن ما للمؤمنين إلا الخير. للمقابلة في الكلام {من لعنه الله} أي طرده عن رحمته، فلعنة الله لكم من شر إيماننا نحن {وغضب عليه} بسبب

عصيانه وتمرده عن الحق {وجعل منهم القردة} جمع «قرد»، كما قال سبحانه: (قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)[٧١]، {والخنازير} بأن مسخهم على صور هذين الحيوانين النجسين {وعبد الطاغوت} عطف على قوله: «لعنه الله» والطاغوت هو العجل الذي عبدوه {أولئك} اليهود الذين هذه صفاتهم {شر مكاناً} أي أن مكانهم في سقر الذي هو شر من مكان المؤمنين الذين نقموا منهم، وقد ذكرنا أن هذا الكلام من باب المشاكلة اللفظية وإلا فليس في مكان المؤمنين شر {وأضل} أي أكثر ضلالاً {عن سواء السبيل} أي وسط الطريق.

[٦٢] وحيث ابتدأ الكلام بعرض المنافق وأهل الكتاب في صف واحد، ذكر سبحانه صفة من صفات المنافقين، وأنهم كيف لا يؤثّر فيهم الوعظ والإرشاد {وإذا جاءوكم} أي جاءكم المنافقون {قالوا آمنا} إيماناً كإيمانكم {و} لكنهم في دعواهم تلك كاذبون، إذ {قد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به} أي بالكفر، كأن «الكفر» مادة يحملونها معهم فهم قد دخلوا بهذه المادة حينما دخلوا في المجلس، ثم خرجوا بهذه المادة كما دخلوا، لم تؤثر فيهم الموعظة والبلاغ، حيث كانت قلوبهم مع إخوانهم الكافرين لا معكم حتى تؤثر فيهم الموعظة {والله أعلم} منكم {بما كانوا يكتمون} أي يخفون من الكفر والنفاق.

[٦٣] ثم إن هؤلاء الكفار يجمعون مع كفرهم صفات أخرى ذميمة هي من مستلزمات الانحراف، أشار إليها بقوله تعالى: {وترى} يا رسول الله {كثيراً منهم} أي من هؤلاء الكفار وهم الرؤساء وذووا الجاه والمنصب {يسارعون في الإثم والعدوان} فيسابق بعضهم بعضاً في فعل الإثم والتعدي على الناس، إنهم حيث لم يؤمنوا بالله وكانت ديانتهم ـ المزعومة ـ صورية كان همّهم تحصيل أكثر ما يمكن من المال والجاه، لذا يتسابق بعضهم بعضاً في ذلك، إن الإثم لا أهمية له في نظرهم إذ لم يعمُر قلوبهم الإيمان، والتعدي من شأن من يريد إعمار دنياه {وأكلهم السحت} كل مال حرام من رشوة وربا وأكل أموال اليتامى وأكل أموال الناس بالباطل {لبئس ما كانوا يعملون} فإن أعمالهم توجب خزي الدنيا والآخرة.

[٦٤] وهنا يتوجه السياق إلى العلماء والمتدينون منهم، كيف يسكتون على هذه المنكرات البشعة التي ظهرت في اليهود؟ وما شأنهم إذا سكتوا عن كل تلكم الجرائم {لولا} كلمة تحضيض بمعنى «هلاّ» أي: لماذا لا {ينهاهم} أي ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان {الربانيون} جمع «رباني» وهو منسوب إلى الرب على غير القياس، أي الإلهيون الذين يتورعون من خوف الله سبحانه {والأحبار} جمع «حبر» بالفتح والكسر، وهو العالم {عن قولهم الإثم} وهو ما يقوله الإنسان بغير حق من كذب وغيبة ونميمة وتحريف وغيرها {وأكلهم السحت} من الربا والرشوة وغيرهما، و«السحت» هو

---

(٧١) سورة البقرة: ٦٦.

أشد أنواع الحرام {لبئس ما كانوا} أي كان هؤلاء الربانيون والأحبار {يصنعون} فإن سكوتهم عن الباطل ومجاملتهم لأهله نوع من الصنع.

[٦٥] ثم بيّن سبحانه مثلاً لـ«قولهم الإثم» بقوله: {وقالت اليهود يد الله مغلولة} لا ينفق رزقاً ولا يعطي شيئاً، كأنهم قالوا ذلك تبريراً لبخلهم، فإن الله لو كان لا ينفق فأجدر بهم أن لا ينفقوا، وقيل: إن سبب نزول هذه الآية: أن اليهود كانوا من أكثر الناس مالاً وسعةً، فلما جاء الرسول (صلى الله عليه وآله) وكذبوه ضيق الله عليهم فقال أحد اليهود: إن يد الله مغلولة، فرد الله عليهم {غلت أيديهم} دعاء عليهم بأن تُغل أيديهم عن الخير، أو إخبار عنهم بأن اليهود بخلاء لؤماء، أي أنهم غلت أيديهم، لا الله سبحانه {ولعنوا بما قالوا} لعنهم الله وطردهم عن رحمته بسبب هذه المقالة.

{بل يداه} أي يدا الله سبحانه {مبسوطتان} كناية عن جوده وعطائه، وإنما جاء بذكر اليد للمقابلة، وذكر «يداه» لإفادة تمام معنى الجود {ينفق كيف يشاء} فليس في تضييقه على اليهود دليل على أنه مغلول اليد بل إنما ينفق سبحانه كيف يشاء حسب الحكمة والمصلحة. ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن وفضحهم يزيد كثيراً من اليهود انحرافاً {وليزيدن كثيراً منهم} أي كثيراً من اليهود، وإنما لم يذكر كلهم لأن بعضهم لا يعنيه الأمر، وبعضهم يسبب القرآن هدايتهم {ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً} «ما» فاعل «يزيدن» و«كثيراً» مفعول مقدم أي طغيانهم وكفرهم يزداد بسبب القرآن، أما أن كفرهم يزداد فلأنه كلما أنكروا آية وحكماً ازدادوا كفراً وستراً للحق وأما أن طغيانهم يزداد، فلأنهم يقاومون الدعوة أكثر فأكثر كلما رأوا تقدمها أكثر.

{وألقينا بينهم} أي بين اليهود {العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة} فإن طبيعتهم المتخمرة بحب الذات واعتقاد أنهم شعب الله المختار وبخلهم في الأموال، لا بد وأن توجد بينهم العداوة والحزازة ـ ما داموا يهوداً يعتقدون بهذه الاعتقادات السخيفة ـ فإن أسباب النزاع في العالم يدور حول المنصب والمادة غالباً، وهذان كامنان في كل يهودي، وقد دل التاريخ على صدق ذلك، فاليهود دائماً متحاربون متباغضون، حتى في فلسطين اليوم تقوم الأحزاب اليهودية والمنظمات بأبشع أنواع العداوة والبغضاء فيما بينها وقد مر سابقاً تفسير «إلى يوم القيامة» وأنه كناية عن بقاء الحكم ما دام اليهود موجودين {كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله} أي كلما أرادوا محاربة المسلمين هزمهم الله ونصر المسلمين عليهم، وقد دل التاريخ على ذلك، فقد غلب النبي (صلى الله عليه وآله) على يهود بني «قريضة» و«النضير» و«خيبر» و«فدك» وغيرهم مع كثرة عَددهم وعُددهم، وبعد ذلك لم يتمكن اليهود من محاربة المسلمين، حتى في يومهم هذا في فلسطين إنما يستندون إلى «حبل من الناس». ثم ما هي إلا فترة حتى تراها قد انقشعوا انقشاع الضباب {ويسعون في الأرض فساداً} فهم المفسدون دائماً، حيث يريدون العلو على الناس، وجمع الأموال، ومن المعلوم أن ذلك لا يتهيأ لهم إلا بالفساد {والله لا يحب المفسدين} أي يكرههم، لملازمة «كراهته» لـ «عدم حبه»، فإن كل مصلح محبوب وكل مفسد مكروه.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٦) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ (٦٧) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٧٠) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧١)

[٦٦] {ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا} إيماناً بما أنزل الله وتقوى من معاصي الله {لكفرنا عنهم سيئاتهم} أي سترنا سيئاتهم الماضية، لأن الإسلام يجبّ ما قبله {ولأدخلناهم جنات النعيم} أي التي فيها أنواع النعم والكرامة.

[٦٧] {ولو أنهم} أي أهل الكتاب {أقاموا التوراة والإنجيل} أي عملوا بما فيهما بدون تحريف وزيادة ونقيصة {و} أقاموا {ما أنزل إليهم من ربهم} أي القرآن، وكونه منزلاً إليهم باعتبار نزوله بين أوساطهم وفي زمانهم {لأكلوا من فوقهم} أي السماء، فإنه سبحانه ينزل «السماء مدراراً» لمن آمن واتقى {ومن تحت أرجلهم} بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، كما قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)[٧٢]، {منهم أمة مقتصدة} أي من هؤلاء «أهل الكتاب» جماعة معتدلون في العمل لا غلو عندهم ولاتقصير، كما نجد أن كل أمة بعضهم معتدلون، وبعضهم متطرفون، أو المراد بهم: الذين آمنوا بالرسول (صلى الله عليه وآله)، وإطلاق «منهم» على أولئك باعتبار الماضي {وكثير منهم ساء ما يعملون} أي أن أكثرهم متطرفون يعملون الأعمال السيئة.

[٦٨] {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} هذه الآية نزلت بمناسبة استخلاف الرسول (صلى الله عليه وآله) علياً خليفة من بعده. كما أجمع عليه المفسرون. وقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يخشى المنافقين من ذلك، فبين سبحانه عظم الأمر بقوله: {وإن لم تفعل} أي لم تبلغ خلافة علي (عليه السلام) {فما بلغت رسالته} لأن كل الرسالة رهن هذا التبليغ، وذلك واضح إذ عدم الاستخلاف معناه ذهاب جميع الأتعاب سدىً، وقد أمنه الله سبحانه مما كان يخشى منه فقال: {والله

(٧٢) سورة الأعراف: ٩٧.

يعصمك} أي يحفظك {من الناس} فلا يتمكنون من الفتنة والانقلاب والإيذاء مما كان يخشاه الرسول (صلى الله عليه وآله).

وحين ذاك، وعند منصرف الرسول من حجة الوداع في وسط الصحراء، أمر بنصب منبر له وخطب خطبة طويلة بليغة، ثم أخذ بكف علي (عليه السلام) وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، وأنشد حسان:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخُمّ وأسمع بالرسول مناديا

{إن الله لا يهدي القوم الكافرين} الذين يكفرون ببلاغك، ومعنى «لا يهديهم» أنه لا يلطف بهم اللطف الزائد بعدما أعرضوا عن الحق عناداً واستكباراً، ولعل الارتباط بين الآية وطرفيها أنه كما أن الناس مأمورون بالقبول، فالرسول مأمور بالبلاغ، مع تلطيف جو الكلام، بتغيير الأسلوب في وسط المطلب، تفنّناً في البلاغ، وتنشيطاً للأذهان، كما تقدم في آيات أخرى مشابهة.

[٦٩] {قل} يا رسول الله لأهل الكتاب: {يا أهل الكتاب لستم على شيء} من الدين الصحيح الذي ارتضاه الله لعباده {حتى تقيموا التوراة والإنجيل} بالعمل بما فيهما بدون تحريف أو تحوير {و} تقيموا {ما أنزل إليكم من ربكم} يعني القرآن، وقد سبق وجه قوله: «أنزل إليكم» وأنه لجهة نزول القرآن في أوساطهم {وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً} فعِوض أن يهتدوا بالقرآن يزيدهم طغياناً حيث كلما رأوا القرآن صمموا على مقابلته وكفروا بكل ما يُنزل منه، ولا يخفى أن نسبة الزيادة إلى القرآن مجازاً، وإلا فهوى أنفسهم هو الذي يزيدهم كفراً {فلا تأس} أي فلا تحزن يا رسول الله {على القوم الكافرين} الذين كفروا بعدما علموا الحق، وأعرضوا عن الهدى بعد أن رأوه وعرفوه.

[٧٠] وحيث تقدم أن الله لا يهدي القوم الكافرين، مما كان يوهم أن الكفار غير قابلين للهداية، ذكر سبحانه أنهم إن آمنوا ـ الملازم لإمكان الإيمان منهم ـ كان لهم ما لغيرهم من المؤمنين من الأجر والمثوبة {إن الذين آمنوا} إيماناً ظاهراً بالشهادتين {والذين هادوا} أي اليهود {والصابئون} وهم قسم من المسيحيين أو غيرهم ـ كما تقدم في سورة البقرة ـ ورفع «الصابئون» مع أنه عطف على المنصوب بـ«إن» للإلفات إلى أن الصابئ الذي لا يُرجى فيه خير إن آمن قُبل، فكيف بغيره؟! فهو معطوف على محل اسم «إن» حيث كان مبتدأ قبل دخول الناسخ {والنصارى} ليس اعتباراً بأسمائهم وصبغتهم العامة في النجاة والثواب، بل {من آمن} منهم {بالله واليوم الآخر} إيماناً حقيقياً من القلب، لا يشوبه شرك ونحوه {وعمل صالحاً} أي عمل عملاً صالحاً {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الآخرة فواضح، وأما في الدنيا فلأن الخوف الحقيقي والحزن الواقعي هو الذي لا يُرجى دفعه وتداركه، بينما خوف هؤلاء وحزنهم ليس كذلك، فإن خوف المؤمن ليس كخوف الكافر، وكذلك بالنسبة إلى الحزن.

[٧١] إن اليهود لم يكن لهم إيمان صادق من يومهم الأول، فكيف تأس عليهم يا رسول الله إن لم يؤمنوا بك؟! ف {لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل} عهدهم الأكيد حول الإيمان بالله وأنبيائه واتباع أوامره {وأرسلنا إليهم رسلاً} يهدونهم إلى الحق، لكنهم نقضوا الميثاق وخالفوا الأوامر وتجرءوا على أبشع جريمة ف {كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم} ولا تميل إلى ما جاء به، بأن لم يكن يوافق مرادهم {فريقاً} من الرسل {كذبوا} كالمسيح (عليه السلام)، حيث نسبوهم إلى الكذب وأنهم ليسوا من قبل الله سبحانه {وفريقاً} من الرسل {يقتلون} كزكريا (عليه السلام).

وَحَسِبُوا أَلاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٣) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٤) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٥) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٦) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٨) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٩)

[٧٢] {وحسبوا} أي ظن هؤلاء اليهود الذين كذبوا الأنبياء (عليهم السلام) وقتلوهم {أن لا تكون فتنة} أي لا يسبب قتل الأنبياء (عليهم السلام) وتكذيبهم فتنة، كما هو شأن كل من يقدم على جرم كبير يظن أن الأوضاع تبقى على ما يشتهي، منتهى الأمر أن ما صدر عن بعض شهواته يزول ويُمحى عن الوجود مع أن الأمر بالعكس، فإن بقاء المجتمع سليماً من الأخطار والآفات إنما هو بانتهاج تعاليم الأنبياء، فإذا أزيح النبي عن القيادة والتوجيه إما بقتله أو تكذيبه، فإنه سوف تحل بالمجتمع أشد الكوارث، وتقع أعظم الفتن {فعموا وصموا} عن مناهج الرشد، بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم، فإن الإنسان يبصر طريقه ويسمع الحق الذي ينفعه ما دام هناك نور يضيء، ومرشد يدعو، أما إذا أزال النور، وأزاح المرشد، فإنه يعمى عن طريقه حتى يقع في المهالك، ويصم عن الحق حتى تحلّ به الكوارث {ثم تاب الله عليهم} بإرسال أنبياء آخرين، والمراد «التوبة» على هذا الجنس لا خصوص من قتل منهم الأنبياء {ثم عموا وصموا} أيضاً عن الحق، بأن تركوا تعاليم الأنبياء وأخذوا يتيهون في الضلالة {كثير منهم} إذ بعضهم آمن واهتدى، ولفظة «كثير» بدل «بعض» عن «كل» لا فاعل ثانٍ {والله بصير بما يعملون} فيجازيهم على ما اقترفوا من الآثام واحتقبوا من الإجرام.

[٧٣] هكذا كان حال اليهود، حيث كفروا بعد أن أرشدهم الله الطريق، أما النصارى فإنهم كإخوانهم اليهود في العمى عن الحق بعد الرشاد {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} وهؤلاء قالوا: إن الله اتحد بالمسيح فصار شيئاً واحداً، ولا يخفى أن الاتحاد غير معقول إذ لو بقي الشيئان اثنين بعد الاتحاد لم يكن اتحاد وإن عدم أحدهما، كان الله، بينما المسيح بنفسه اعترف بأنه عبدُ الله {و}

الحال أنه {قال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله} وحده {ربي وربكم} فإنا جميعاً عبيده {إنه من يشرك بالله} ويجعل له شريكاً، سواء اعترف به وبالشريك، أم اتخذ إلهاً غيره، فإنه أيضاً من جعل الشريك لله {فقد حرم الله عليه الجنة} فلا يُدخله فيها أبداً {ومأواه} أي مصيره {النار وما للظالمين} الذين ظلموا أنفسهم بالشرك {من أنصار} ينصرونهم من بأس الله وعذابه.

[٧٤] وهناك قسم آخر من النصارى جعلوا الآلهة ثلاثة {لقد كفر} النصارى {الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} أي أحد آلهة ثلاثة، وهم: «الأب» أي الله، و«الابن» أي المسيح، و«روح القدس»، قالوا: هذه الثلاثة واحد، وذاك الواحد ثلاثة، وحين يسألون: كيف يمكن ذلك وهو تناقض؟ يقولون: إنه فوق مستوى عقولنا، ولا يلزمنا معرفة الكيفية.

وهناك سؤال هو أنه ما الفرق بينكم أنتم المسلمون حيث تقولون بأن الله لا يُدرك كنهه، وبين الذين قالوا إن مشكلة التوحيد والتثليث فوق مستوى عقولنا؟

والجواب: إن الفرق من أوضح الواضحات، إذ أولئك يقولون بما لا يمكن ولا يعقل، وما لا يدرك {وما من إله إلا إله واحد} أي ليس للكون إلا إله واحد هو الله سبحانه {وإن لم ينتهوا} أي لم يرجع هؤلاء النصارى القائلون بالتثليث {عما يقولون} أي عن مقالتهم، وقولهم بالتثليث {ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} في الدنيا والآخرة، وإنما لم يقل «ليمسنهم» لإفادة أنهم بمقالتهم هذه يكونون كفاراً، تأكيداً لما سبق من قوله: «لقد كفر» وهذا من أساليب البلاغة، يقال: «اترك هذا الأمر وإلا لسجنت الفاعل له» عوض أن يقول: «لسجنتك» لإفادة أن علة السجن هو الإتيان بذلك العمل.

[٧٥] ثم استفهم سبحانه استفهاماً تعجبياً، وقد تقرأ في الأصول أن أمثال هذه الاستفهامات والتعجبات إنما هي إنشاء مفهوم الاستفهام والتعجب وأمثالهما، لداعي آخر من ترغيب وإنكار وما أشبه، فليس استفهامه ولا تعجبه عن جهل وتعجب كما هو عندنا {أفلا يتوبون} هؤلاء اليهود والمسيحيون {إلى الله} ويرجعون عن عقائدهم السخيفة وأقوالهم المفتعلة {ويستغفرونه} لما مضى من كفرهم وعصيانهم {والله غفور رحيم} يغفر لهم إن تابوا أو استغفروا، ويرحمهم بفضله إن رجعوا وآبوا.

[٧٦] وبعدما ذكر سبحانه أقوال المسيحيين حول المسيح، بيّن تعالى واقع المسيح وأنه ليس كما زعموا {ما المسيح ابن مريم} أي ليس المسيح (عليه السلام) وذكر «ابن مريم»، لنفي كونه ابن الله . في العبادة . {إلا رسول} فليس هو بإله {قد خلت} أي مضت وسبقت {من قبله الرسل} فهو رسول كأحدهم، فكما ليس أولئك بآلهة، ليس هذا بإله {وأمه} مريم (عليها السلام) {صديقة} كانت كثيرة التصديق بالله وآياته، فليست هي إله كما زعم جماعة من المسيحيين فقالوا بالأب والأم والابن {كانا} المسيح وأمه {يأكلان الطعام} وذلك من صفات المخلوق لا الإله، إذ آكل الطعام محتاج إلى الطعام، وله جوف، وله أجزاء، وله حالات، وكل ذلك ينافي كونه إله {انظر} يا رسول الله {كيف نبين لهم} ونوضح لهؤلاء النصارى {الآيات} الدالة على عدم كون المسيح إلهاً {ثم انظر أنى يؤفكون} أي

كيف يُصرفون عن الحق، يقال: «أفكه يأفكه إفكاً» إذا صرفه، و«أنى» بمعنى «أين» أي أنهم أين يُصرفون عن الحق الموضّح بالآيات؟!

[٧٧] {قل} يا رسول الله لهؤلاء النصارى الذين يعبدون المسيح ويجعلونه إلهاً {أتعبدون من دون الله} أي غير الله {ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً} فإن شيئاً في الوجود لا يملك ضر أحد ولا نفعه إلا بإذن الله، ومن أضرّ أو نفع بالوسائل الطبيعية ـ كالقاتل والمعطي ـ أو بالوسائل الغيبية كالأنبياء والأئمة، فإنما ذلك حيث جعل الله المسببات تابعة لأسبابها الخاصة، وسلط الفاعل على الأسباب، فهي ترجع أيضاً إليه سبحانه {والله هو السميع} لأقوالكم {العليم} بضمائركم وحركاتكم، فاحذروا مخالفته، كي لا تقعوا في عقوبته ونكاله.

[٧٨] {قل} يا رسول الله: {يا أهل الكتاب} إما عام يشمل اليهود والنصارى، فالمراد بغلو اليهود: قولهم عزيز ابن الله، وقولهم أن المسيح ليس نبياً، فإنه غلوّ معكوس، أو المراد به النصارى فقط {لاتغلو في دينكم} بأن تقولوا: المسيح هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو إنه ابن الله {غير الحق} عطف بيان، إذ كل غلوّ هو غير الحق {ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل} فإن أسلافكم لو ضلوا في اعتقادهم وغلوا، فلماذا تتبعونهم أنتم، إنهم كانوا من قبل وقد مضوا، فما بالكم أنتم تقتفون أثرهم الباطل {وأضلوا كثيراً} من الناس فأوقعوهم في ضلال الكفر والشرك {وضلوا عن سواء السبيل} أي الجادة المستقيمة. والتكرار إنما هو لاختلاف المتعلق، فقد تعدّى أحدهما إلى «من قبل» وتعدى الآخر إلى «عن سواء السبيل» أو المراد بـ«القوم» كبارهم الذين كانوا قبل النبي قائلين بألوهية عيسى، وأدركوا فلم يؤمنوا، فإنهم ضلوا من قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) لقولهم بالتثليث، وضلوا بعد بعثته لكفرهم به (صلى الله عليه وآله).

[٧٩] {لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل} فاللعنة عليهم من قديم الزمان حيث لم ينفكّوا يعملون القبائح ويكفرون بالأنبياء وينسبون إلى الله ما لا يليق به {على لسان داوُد} النبي (عليه السلام) في الزبور {و} على لسان {عيسى ابن مريم} في الإنجيل، فقد لعنهم داوُد (عليه السلام) لما اعتدوا في السبت فصاروا قردة، ولعنهم عيسى (عليه السلام) لما كفروا بعد فصاروا خنازير {ذلك} اللعن إنما استحقوه {بما عصوا} أي بسبب عصيانهم {وكانوا يعتدون} أي يتجاوزون حدود الله سبحانه.

كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٨٠) تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨١) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨٢)

[٨٠] ثم بيّن سبحانه بعض عصيانهم واعتدائهم بقوله: {كانوا} أي كان بنو إسرائيل {لا يتناهون} أي لا ينهى بعضهم بعضاً {عن منكر فعلوه} فقد تفشت فيهم المنكرات ولم يكن ينهاهم علماؤهم، فاستحق الجميع العقاب، أولئك بإتيان المنكر، وهؤلاء بسكوتهم عن فاعليه {لبئس ما كانوا يفعلون} من إتيان المنكر وعدم التناهي عنه.

[٨١] {ترى} يا رسول الله أن تلك الطبيعة العاتية العاصية موجودة فيهم إلى الآن، فإن {كثيراً منهم} أي من بني إسرائيل ـ اليهود ـ {يتولون الذين كفروا} أي يتخذون الكفار أولياء لهم، فقد كان اليهود يتولون كفار مكة ويقولون: (هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً)[٧٣]، في حين يجب على المؤمن أن يعادي الكافر الذي لا يعترف بالله وقوانينه {لبئس ما قدمت لهم} أي لهؤلاء اليهود {أنفسهم} أي بئس ما قدموا لمعادهم من الأعمال السيئة {أن سخط الله عليهم} محله الرفع بـ«بئس» فهو كزيد في قولك: «بئس رجلاً زيد» أي بئس السخط الذي قدموه لأنفسهم {وفي العذاب هم خالدون} فالسخط يؤذي روحهم، كمن يعلم أن السلطان غاضب عليه، والنار تؤذي جسمهم كما قال سبحانه في عكس ذلك: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ)[٧٤]، فإن أهل النار يعذبون عذابين، وأهل الجنة ينعمون نعيمين.

[٨٢] {ولو كانوا} أي هؤلاء اليهود {يؤمنون بالله} إيماناً صادقاً {و} يؤمنون بـ {النبي} محمد (صلى الله عليه وآله) {وما أنزل إليه} من القرآن الحكيم {ما اتخذوهم} أي لم يتخذوا الكفار {أولياء} لهم، أو المراد: أنهم لو آمنوا بموسى وكتابه إيماناً صادقاً، لم يتخذوا الكفار أولياء، إذ الإيمان بهما يمنع من ولاية الكافرين، فهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون بموسى وكتابه {ولكن كثيراً منهم فاسقون} خارجون عن طاعة الله ورسوله وكتابه، فإنما يدعون الإيمان باللسان، وقلوبهم خالية من الإيمان.

نهاية الجزء السادس

---

(٧٣) سورة النساء: ٥٢.

(٧٤) سورة آل عمران: ١٦.